

سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

مطالعات فى الشئون الأفريقية

جمال محمد أحمد

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢١٨ صفر ١٣٨٩ مايو ١٩٦٩

No. 218 - May 1969

مركز الادارة

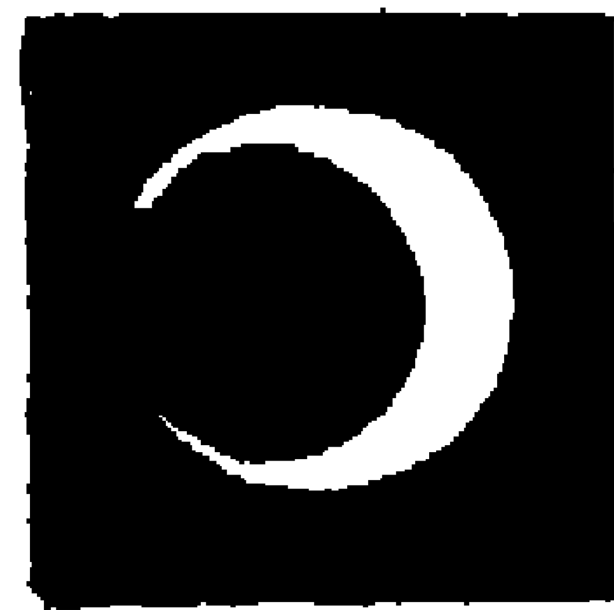
دار الهـلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ — فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا — والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخـارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج٠ع٠م) — والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحـددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشة
الفنان حلمى التونى

جمال محمد أحمد

مطالعات في الشئون الأفريقية

دار الهلال

تقديم

هـــذه مطالعات فى الفكر الافريقى ، نشر بعضها فى حوليات عربية ، وقرىء بعضهـــا فى ندوات ، وانشرها كما كتبت حينها فى السنوات الاخيرة القليلة ، لترصد تلكم الفترة ، كما بدت آنذاك . وخوف أن يطـــول الـكتاب أبقيت أخوات لها تتمها لتنشر بعد حين ..

أسارع الى نشر هذه الفصول لأن بعضـــنا يضيق بافريقيا هذه الايام . منطق هذا البعض ، هو أننا نقف مع قضايا الافريقيين العدة ، ونغالى فنجدع أنوفنا من أجلها أحيانا ، على النحو الذى فعلنا أيام ثارت أزمة روديســــيا . أحجموا وأقدمت الدول العربيـــــة والاسلامية فى القارة وقطعت علائقها مع المملكة المتحدة . هم لايستجيبون لقضايانا ، وان استجاب بعضهم ، اتى على استحياء . منطق وواقع . من حقنا أن نعجب لمواقف الاكثرية الافريقية من قضـــايانا ، ولـكن ليس لنا ان نياس من يوم قريب ، يكتشفون الآصرة بيننا وبينهم ، نراها نحن ولا يرونها هم ، الا خلال ضباب كثيف ، تصطنعه القوى القادرة على ما تريد ، وهى قوى بيننا وبينها تاريخ قلق مضـــطرب ، بدأ مع الصليبيين ، ويجدد مرارته ، ساسة اشـــقياء فى أوربا ومبشرون وكتاب.. نخطىء انحسبنا ان الانسان الافريقى امتلك كل أمره ، ونخطىء أن نســـينا انه مع عجزه هذا يهم ولا يستطيع .. سمعت أو قرأت ولا ريب ، عن الدموع

التى جرت من محاجر ذلك الشـــاب الذى أخضـعته برقيات عاصمته التى يمثلها فى الامم المتحدة ، ليصوت مع باطل القوة ، ضد حقنـا الذى ابرق به لعاصمته مرات .. يعيش الانســـان الافريقى أزمات عريضة ، ويسير نحو غيرها ، ويعرف اننا بضع من بعض ، طلاب مرة يأباها الانانيون من أوربا وأمريكا ، ويرثيها أهل البصر منهم والبيان ، أمثال « رينر » صاحب « القبيلة وما تلاها » ، الذى يقول فى صدق : « انقشعت سحابة عن سماء القارة الافريقية فى السنوات الاخيرة العشر ، لـكنى ارى سحبا كثيفة اخرى تظلل السماء هنا بعد ، وتنشر الظلام والرعب والقلق .. خرج الاســـتعمار بمعناه القديم من اقطار افريقية كثيرة ، ولكن اقطارا أخرى كثيرة ما زالت تعمل لاخراجه ، واقطارا أخرى كثيرة تعد العدة للقتال والتخريب والذبح ، لأنها لا تجد فى النهاية سبيلا اخرى غير هذه السبيل .. انا ارى النار والذبح ولا أرى سبيلا لغير هـــذا ، ولن يجدى الحياد العقـــلى بعـــدها أو الجسدى .. كل الذين يحترمون ذواتهم ، سيلقون انفسهم هناك على نحو من الانحاء فلنعرف .. »

***

كلمات يائسات ، ولـكنها لا تبعد كثيرا عن حقـــائق الحياة فى أقليمنا هـــذه الايام ، وفى القارة الافريقية ، ولو كنت أكتب فى السياسة لقلت : ان هذا الذى يقوله « رينر » هو الذى يجمع بيننا فى النهاية . يبكى ذلك الشاب ، يرى الجامعة ، ولا تدعه قوى الشر ان يعمل فى اطارها .. ان أقنعتك هـــذه الفصول حين أخلى سبيلك لتقرأها ، بأن فى افريقيا فكرا مزدهرا ، أكن سعيدا ، فهذا بعض ماقصدت اليه ، منعرض الانسان

الافريقى كله ، فى العقد الذى أتحدث عنه ، وكان عقد بطولات وانجاز ، استحال رمادا أغبش بين يوم وليلة ، انقلابات هنا ، وحروب أهلية هناك ، وثورات قبلية ، وقهر وسجون .. ليس من عزمى هنا أن اتصدى للعوامل التى أحالت البطولات فجائع ، يبرره الافريقيون يقولون أوجاع ميلادنا ، ويعلله الاوربيون ، يقول الشامتون منهم ، ما كانت رياح تفير تلك التى هبت على القارة أواسط الخمسينيات واوائل الستينيات ، وانما كانت جراح تفير .. ولتكن التعلة صحيحة ، أو المبرر كذلك .. الذى يعنينى أن ابينه هو أن البطولات فى الفترة التى أرصد ثورتها ، تحمل فى ثناياها وطيات فكرها ، عناصر بقائها ، وان تعقدت المسالك اليوم ، وتعرت أنانية القوى ، لا تستحى أن تبدل وجه القارة ، بالذى تملك من دهاء ومال .. رأى كثيرون بعين بصيرتهم هذه الفترة الغليظة الخشنة ، وحثوا أهلهم على الاباء ، على الرفض .. استمع لداود ديوب مثلا يقول فى قصيدته « نتحدى القوة » :

انت أيها الذى انحنى ظهرك ..

انت أيها الذى تنوح ..

تموت ، ما تدرى ، لماذا ؟ ..

تكدح ، كى يحيا على كدحك غيرك ..

فعلت فيك الليالى فعلها ..

أنستك ضحكا كان أمس دابك ..

آض ذعرا ..

وجهك الضاحى ، الم ..

قم على رجليك ، واصرخ :

لا . . . .

و « لا » هذه هي الجامعة بيننا وبين افريقيا النافرة منا ، الخائفة على قابلها .. لا ياس منها اذن ..

كلمة من هذه الفصول .. دراسات اجتماعية هى أم تاريخية أم أدبية ؟.. كلها معا ، ففروع المعرفة لم تعد حجرات مقفلة بعضها ازاء بعض .. أنا أكتب التاريخ على النحو الذى أراد « فيكو » للنـــاس أن يكتبوه ، وظلت آراؤه حبيسة أوراقها حتى سعى اليها «كروش» ينبشها ويكتب فى ضــــوئها عن تاريخ أوربا فى القرن الماضى وايطاليــــا ، بلاده ، وذهب أبعد منه ، أوفق فى تطبيق تلــكم الافكار « ادمند ولسون » حين كتب عن جذور الاشتراكية فى « محطة فنلندا » ، ويرفع علم هذه الافكار فى اقتــــــدار مروع ، ازآيا برلين ، حين يحــاضر عن الحريين ، ويتعرض للمثقفـــين الروس فى السبعينيات من القرن المـــاضى ، ويعرض عليــك فى أسلوب مذهل اقتداره ومعرفته ، النحو الذى كيف هؤلاء وأولئك الطريق للثورة الاشتراكية فى أوربا .. اريد لأنحو نحو هؤلاء ، لا أخجل ، أرجو أن أوفق .. ذواتهم تتدخل فى الذى يكتبون من تاريخ يرونه خلال رواد أحداثه من أهل الفكر والفطنة .. لا يجلسون على السور ، كمـــا يقولون ، ليسوا هنا وليسوا هناك .. يلتزمون التزاما بالحقيقة ، يؤمنون بمكانها المقدس ، ولــكنهم هنــاك جنبها ، كتاب ترفد معرفتهم أحاسيسهم .. سعيت فى فصولى هذه أن أكون جنب كل حقيقة أعرف ، أرعاها بحس ، وآمل كما قلت الا تخفق التجربة . التاريخ ، على أية حال ، كائن حى ، يراه كل جيل على أضوائه ، وكل فرد على منازعه ، وأكذبك ان لم أقل لك انى أحب منازعى وأهوى تحيزاتى ..

الخرطوم فبراير ١٩٦٨ — جمال . م . احمد

عصر النهضة فى أفريقيا

« امض سبيلك ايها الانسان . لن يحدك حد ان اخترت ، او يثقلك ماض . انت رائد نفسك ، سلطانها ، الرب . صفها كيف شئت ، فى اية صورة رايت ، لا يزعك وازع ، تسير وراء اختيارك . انزل بها مسافل الكائنات الصغيرة ، وحشا صغيرا ، وارق بها الاعالى ، الها تكاتف الآلهة . انظر اعماقك ان شئت ، واقدامك ان اردت . سر على الارض شحاذا ، وسر عليها اميرا ، فالامر كله بين يديك . ابعثها جديدة هذه النفس بين جنحيك ، واقبرها ذليلة ، انت سلطانها ، الرب .. »

بيكو ولاميراندلا

ما ادرى اية عاصمة من عواصم القارة الكبيرة تعرف . داكار فى الغرب ، دار السلام فى الشرق الجنوب ، اديس فى القرن ، عنتبه فى الوسط الحزام ، ام اكرا ولاقوس ، ام غير هذه التى اعد ؟ اية واحدة منها تمثل اليوم هذه الحيوية الخليط التى عرفتها البندقية ونابلى وغير هاتين من مدن النهضة فى ايطاليا القرن السادس عشر ، عصر النهضة الآخر ، مزيج لا تثبته العين ، نزوع وسقوط : قيثارة وقمل ، حرائر من ديور ، ونتن من اباط ، اغانى ميكامبا وطاعون ، كادحون ذاهلة عيونهم بما يرون فى قراهم وفى

الريف ، جرارات وكاسحات تراب ومداخن مصانع ، وعاظ صفرت وجوههم من الصراخ ، وبقايا بقايا على الطريق وفى « التكل » ، شعراء ما أبقت الخمر منهم الا شفاها مدلاة وشعورا مرسلة وحساسية مبينة ، وعلب ليل تموج أصلابها وأعطافها مع الخنافس والهر ، واحزاب تقوم فى المنفى ، ونقابات تشتجر ، ومشانق فى الساحة الكبرى ، بطاحين ، وقائد متصوف أتى القيادة عبر السجون والدرس العميق ، وآخر جاءته اعتباطا وعطية ، ولحى غابية ، وفساد فى السياسة مع اقتدار فى الادارة ، ووجوه حليقة ، وكتاب ملأت قصصهم سمع الدنيا وبصر العالم . كل شىء . فى افريقيا القرن العشرين يعيش رجل النهضة الاوربية على الصدر الاخير من تلكم النهضة فى القرن السادس عشر . كل عبقرياته ، كل تطلعاته ، كل خذلانه وكل انجازه . فردية جامحة تجنح نحو لا أخلاقية تامة ، دينه ذاتى ، يرقد قلقا فوق كومة من الحان الجدود ورقصات الاسلاف ، وسحر السحرة ، قرت جميعها فى وجدانه . وهو آخر الامر شكوك ، فما انتهت به دياناته الى الذى قال به القس أو الشيخ ، وهو يحاوره عن دينه الاصلى . يجد كثيرا ويسخر بعض الاحايين ، وهو غاضب أكثر وقته ضائق ، يريد ليعدو القرون ، ليلحق بالركب الحضارى ، آلاته وراحاته المادية من جهة ، وشعره وموسيقاه من جهة ..

تقعده عن اللحاق مقعدات ، على رأسها عمه وخاله وابوه فى القرية . بينه وبينهم ما بينه هو فى المدينة وبين الانسان الاوربى ، يأخذ عنه ، أو هى فجوة أوسع . كلما هم بوثبة قيل له : وأولئك ، انهم أهلك وذووك ،

مسئوليتك . قالت لهم اوربا المعاصرة ، هونوا عليكم ، سيروا سير ضعفائكم أو كما تقول ، وهي مدفوعة أكثر الاحيان ، بشهوتها لحمل عبء الرجل الابيض ، تغيرت مع الزمان مظاهره ، وبقيت رغم الزمان أصـــوله فى النفس . اهل القرى والريف فرائس من ناحية وحجة على أهل المـــدن . فرائس لأنهم من جوعهم وآمالهم المثارة صديقون ، يرسب فى وجدانهم كل الذى يقول الدعاة من شرق وغرب ، على لسان اللصقاء بهم من الافريقيين ، وحجة لأنهم مبرر الوجود الاوربى بعـد الاستقلال فى القارة . يقول هذا الوجود ان مواردكم قليلة ، وخبراءكم قليـــلون ، دعونا نعنكم على تأخر بلادكم . بعض حق وبعض باطل . شـــق يدخل منه الاوربى ثانية لسابق سلطانه ، وان لم يكن لسابق عزه ، وتذهب نفس القـــادرين العـــارفين من أهل افريقيا حسرات . يكرهون هذا العون المقيد ، ويأبون لأهلهم جفاف العيش والضنك . ومن هنا هذا الخليط الذى ذكرت . يعيش الانسان الاسود فى العواصم عين الحياة التى ارادها « بيكو » الشاعر الشاب لأهل العواصم فى ايطاليا على عهده . يريد ليلحق بالآلهة ، سلطانا على كل شيء ، يصور نفسه كيف شاء ، لا كما شـــاءت الكنيسة للانســان فى العصر الوسيط قبل أن تكتشف أوربا نفسـها وكيانها وذكر الاغاريق من قبل وذاتها . كان قبل هذه الذكر أداة فى يد الكاهن والقس ، ونفض الاساطير « قاليليو » و « كوبيرنكس » ، وهاجر العلماء من الشرق يرفدون هـــذا بما يحملون من أســـفار « ارسطوفانيس » و « ارسطو » ، يعيدون للانســـان مكانه الوسط بين الـكائنات ، قطب الرحى ، وينقذونه

من يد الكنيسة غلت يده وعقله طوال «عصور الظلام» ، لله ماله ، ولقيصر ماله وعليه ، وللانسان حقه وعليه التزاماته ، لكل قوم وطن ، لا عالمية ، الامر كله فيهـا لروما : فرنسا وطن ، واسبانيا وانجلترا . انتهت القداسة الا قليلا حين تفتحت الاذهان ، وقويت السواعد على العمل من أجل الوطن المحدد المحدود بالاوتاد والقسمات الخلقية واللغوية ، صنعها «دانتي» و « شوسر » ، وغير هذين ..

وهكذا افريقيا المعاصرة ، خلصت من الاستعمار الاوربي الا أقله الآن ، وكان يؤود عقله ويده على النحو الذي فعل الدين في العهد الوسيط بالانسان الاوربي . يقظة تكتشف الذي كان من امرها في الماضي ، الذي اغتاله الاستعمار اغتيالا واسدل الستار عليه لايراه ، والحاضر طريقة الماضي وغايته المستقبل كما نعرف ..

تسعى افريقيا المعاصرة لتعود للطريق وقد اخرجته منها مراكب الاوربيين ، وألهته عنها قوافل الرقيق . اقرت أول ما استطاعت أن تقر في أول مؤتمر للدول المستقلة عقد في اكرا سنة ١٩٥٨ ، أن يكون التاريخ الافريقي موضع الرعاية والعناية من اقطار القارة ، وأوقف الدكتور نكروما مليونا من الجنيهات لتصدر عن عاصمته موسوعة أفريقية تعنى برجال القارة وفكر القارة ، كما أنشأ قبلها معهد الدراسات الافريقية ، تشرف عليه حفنة صابرة من العلماء والدارسين ، وسنرى في قابل ايامنا جهودا اوفر في هذه السبيل ، فقد قر في ذهن الافريقي — عن حق — ان حاضره سيقوم على فراغ ، ان لم يكن امتدادا لماضيه ، والمستقبل جنين في بطن هذا الحاضر . آن

صحت صح معها الجنين ، وان هزلت هزل الوليد..

اتى الاوربيون افريقيا حين ضاقت بآفاقهم الجديدة قارتهم الصغيرة . ما عادت أرضهم القديمة تستطيع أن تحتوى طاقاتهم الجديدة من انتاج زراعى وصناعى وفكرى ، فخرجوا يضربون فى الارض يعمرونها ويستعمرون ، وكانت افريقيا على ذلك العهد نفسه ، تسير نحو مستقبل ، أكبر الظن انه كان قريبا من الحاضر الذى رست عنده القارة الاوربية بعلومها وفنونها الجديدة ، مختلفا عنه ، ربما لا أوضح منه ولا أحقر على التأكيد . وكى لا تحسبنى مغاليا ، أشرح :

كانت تمبكتو وجن ومالندى وكلوا وسفالا وعشرات من غير هذه المدن ، تمارس تجارة زاهرة بمقاييس ذلك الزمان وصناعة وعلوما وفنونا طريفة ، والحق الذى يؤكده التاريخ هو ان مراكب البرتقال والاسبان والانجليز والفرنسيين والهولنديين ، شغلت افريقيا عن تقدمها ، أتت تغتال مواردها لنفسها ، فحولت نموها دفاعا عن بقائها . ولعلنا لا نسرف ان قلنا أن النهضة الاوربية قامت على اضعاف التجارة والصناعة والعلوم والفنون فى افريقيا . خرجت أوربا من «عصور الظلام » لتدخلها افريقيا ، ان شئت هذا التعبير .

انقضت أوربا على النهضة الافريقية هذه القرون الاربعة ، حتى كان عقدنا هذا الاخير . خرجت القارة السوداء فى هذه الستينيات من القرن العشرين تتحسس طريقها للأمام ، وقدعشيت عيونها فى الظلام ، والذى يتحسس يخلط بين الغباء والحكمة على النحو الذى وصفت بادىء بدء ، حين قلت ان افريقيا فى قرننا العشرين هذا تعيش عيش أوربا فى قرنها

السادس عشر ، على عصر النهضة ، وانا واع حين اقول هذا بأنه لا يصور الحقيقة تصويرا ، وانما هو قريب منه يكاد يلمسه ..

ستقول سبقت عصر النهضة الآخر يقظة فى روح الانسان وعقله ويده ، راد الطريق لها كوبيرنكس وقاليليو ودانتي ودافنشي وغير هؤلاء فمن فى زعمك كفاء هؤلاء فى النهضة الافريقية المعاصرة ؟ وانسان النهضة فى أوربا عبر البحار وقاوم التسلط فى قرونه الاربعة بين الصحوة الاوربية الاولى فى القرن الثانيعشر والنهضة الاخرى فى القرن السادس عشر ، فأين من هذا كله رجلك أنت فى القارة السوداء ؟ وقبل هذا كله ، أين سخاء الطبيعة الاوربية من شح غابات وصحارى هذه القارة ، ذاك الثراء الطبيعى الذى علم الانسان الابيض أن يتقن ادارة المال والحكم ، وأن يديرها ادارة مكنت له فى الارض سلطانا على السود والصفر ؟ لقد قرأنا ان تاريخ الانسان الاسود ما عرف الادارة والحكومة والصناعة ، وقرأنا انه ماعرف تاريخا قط ، وانه كان بضعا من التاريخ الطبيعى للقارة ، كأنهارها ، كأشجارها ، كحيواناتها ، لا يبعد عنها ولا تبعد عنه . الى أن لحقه الاوربى بحضارته . والحقه الرجل الابيض بتاريخه حين غزاه تاجرا ومبشرا بادىء الامر وحاكما نهاية المطاف ، فصار لصقة صغيرة فى تاريخه.

أنى له اذن أن يعد الآن من القرن العشرين ، انه لو ترك وشأنه قبل أربعة قرون حين أتت مراكب البيض غيلة سواحله ، لمضى سبيلا فى الحضارة كما قلت ، ما كانت لتشبه الحضارة الاوربية بالطبع ، ولكنها لم تكن لتبعد عن آفاقها هذا البعد الذى خلقه طمع

الانسان فى أوربا وغروره ، وهو بعد تعمق شـــقته كل يوم ، كما نعرف ٠٠ يمشى الرجل الابيض أمام والاسود يخطو وراءه وئيدا

لنقف قليلا لنعالج هـذه الاسئلة من وثائق التاريخ نفسه ، من مدونات الرسل الذين أوفد ملوك البرتقال والاسبان وأهل الثراء والمـال فى الجزيرة البريطانية ، ولن نستطيع فى ورقة كهذه الا القليل من الكثير الذى يملأ صفحات هذا السجل . كانت افريقيا ــ ان كنت مثلى ممن يحبون مقابلة العهود التاريخيـــة فى موكب الانسان ــ تعيش ما يقـــابل عصر النهضـــة الاولى فى اوربا ، حين أتى الرسل يكتشفون ، ومن أبعد هؤلاء بصرا ديوارت باربورسا . طوف الســـاحل الشرقى وســـطه وقرب جنوبه سنة كاملة بين ســـــنة ١٥٠٠ و ١٥٠١ ، ثم أتاها من بعد سنة ١٥١٧ . طوفها قبل أن تمسها يد الاوربى ، وهى تنمو وتزدهر من داخلها ، كما فعلت أوربا فى عصر النهضة الاول ، لا يصرفها عن هذا النشاط الا النضال المحلى على الحكم بين القبائل والقادة ، وهو نضال لايستنزف الروح والمادة ، كما يفعل نضال الاجنبى . كتب ديوارت يصف ســـفالا وكانت قبل أن يأتى البرتقاليون ، فرضة التجارة فى موزمبيق ومدخل أقطار القارة فى الجنوب والوسط .

« التجارة فى سفالا تسير على نحو منسق مرسوم . يأتيهـــا التجار فى قوارب صغيرة اســــمها الزمبوك (لعلها السنابك ، جمع ســـنبوك) من ممالك كلوا وممباسا ومالندى ، يبيعون اقمشة قطنية ، بعضـــها مزوق ذو نقط ، وبعضها الآخر ابيض أو ازرق ، كما يبيعون نمـــاذج عدة من الحرير والوانا من الخـــرز والصوميت ، فيها الاحمر والاصفر والرمادى . تجىء

هذه السلع فى مراكب كبيرة عبر المحيــط من شمال غرب الهنــد ، من مملــكة كامباى ، يشتريها تجار العرب على الساحل فى مالندى وممباسا ، بمقادير من الذهب ، يزنونها على قدر معلوم لقاء كل سلعة ، يعود بعدها التجار لمصادر هذه السلع مرة أخرى ، ويأتى بها هؤلاء هنا لسفالا ، ينشدون مزيداً من الذهب ، يأتى به الاهلون من مملــكة بينا ميتابا فى الداخل البعيد (فى روديسيا الجنوبية الآن) يعطونه للتجار لا يزنونه ويجمع العرب مقادير من العاج قرب ســفالا يبيعونه لتجار الهند من كامباى لقــاء خمس أو ست كروزاد للــكنتال .. » ولو كنت هنا بصدد المقابلة بين التجارة العربية الافريقية والتجارة الاوربية الافريقيــة ، لقلت ان العرب كانوا أحصــف من الاوربيين واقرب لنفوس الافريقيين ، ولــكنى لن أفعل ، أدعوك لتقرأ معى بعض ما كتب الاوربيون عن أنفسهم ، مائتى سنة بعد هذا اللقاء العربى الافريقى الذى رأيت فى ســفالا ، ولولا هذه الريبة التى تعتمل فى قلوب الصفوة الافريقية من فعل المبشرين ومن ضعف العرب على أيامهم الحالية ـ لام المخطىء الهبل ـ لما احتاج الواحد هذه المنافرة .

كلاهما كان غريبا على الافريقى الاسود ، احسن العرب عشرته ، وما كان كذلك الاوربى ، وأن كان قد أذيع غير هذا الآن وصدق . يقول جون نيوتن ، قائد مركب من مراكب الرقيق ، تحول من بعد داعية ضد هذه التجارة الآثمة : « يحسب الافريقيــون ، الا قلة منهم ، أن الاوربيين أوغاد لا يبارون ، ويبادلهم الاوربيون عاطفة مماثلة » . يقولون أن الافريقى وغد لا يباريه أحد .

كلاهما يحاذر الآخر ، خوف ما قد يأتيه من عمل شقى .

ان صورتنا على الساحل صـــورة غير مستحبة » .
وسجل تاجر اسمه سمث فى مفكرته عام ١٧٥٤ قولة يقول بها العارفون شئون افريقيـــا حتى يومنا هذا ·
قال : « يعد أهل النظر من الافريقيين لقاء الاوربيين لهم أتعس شيء عرفوه فى حياتهم الطويلة · يقولون اننا نحن المسيحيين ادخلنـــا تجارة الرقيق ، وانهم كانوا يعيشون فى سلام الى أن جئنا نحن ، ويلاحظ هؤلاء القادرون على التفكير ان المسيحية تأتى حين تأتى ، وفى يدها سيف ومدفع وبارود » . أكاد أعتذر من هـــذا الذى أكتب ، فأبغض البغيض التكاثر ، ولا حيـــلة للمستضعف الا أن يلوذ به ، يفاخر ، ولـكن قلة من موظفى الدين ــ لا رجاله ــ البت السود على السمر فى افريقيا ، ممارسة لمهنة تكتسب منهـــا العيش ، وتجد المكان ، وهى ضالة فى هــــذا الذى تفعل ، فان النزاع الذى يثور من حين لحين فى افريقيا المعاصرة ، نزاع الدين فيه عنصر يأتى فى مرتبة ثانية أو ثالثة ، ومرده ــ كما كان فى الماضى ــ لأمور تتصل بالحيـــاة هنا على هذه الارض ، حتى الخشـــــونة فى عـــلاقات الاثيوبيين المسلمين والنصارى حول تلك البلاد ، طوقا لها ، خشونة مردها لعوامل اقتصادية واجتماعية ، لادينية ، كما يحب أن يصورها عابرو السبيل ممن لا يرون من الفيـــل الا خرطومه مثلا أو ذنبه ، ويلحون على انه الفيل . عمى عن عمد أحيانا وعن طيب خاطر جاهل ، بعض الاحايين · هنا أيضا أحب لك ان تقرأ معى هـــذه الفقرة عن علاقات النصارى والمسلمين فى هذه المنطقـــة كما يراها بول مارك هنرى فى كتابه الذى سيطبع بعد حين · يقول صادقا بصيرا :

« لم يكن للصـــدام بين الاسلام والمسيحية فى شرق افريقيا تلك الصبغة التى تميز بها النضال عينه حول حوض البحر الابيض المتوسط . بدا هـذا نزاعا بين عالمين مجربين فى الجذر ، لا آصرة بينهما ولا رحم ، وما كان ذاك كذلك. كان الصراع فى شرق افريقيا بعيدا عن الفلسفات . كان أكثره نزاعا تاريخيا ، ومن بعض نواحيه عنصريا أو قبليـــا . كانت العلاقات بين الجزيرة العربية ، حين أسلم أهلها ، وبين الشعوب السامية ، التى اعتنقت النصرانية من قبل ، وهى تتحكم على مداخل الهضاب الاثيوبية ، كثيرة متعددة الجوانب ، ما تأثرت بفلسفة » ..

ولنترك التجارة والعلاقات البشرية للعلم والثقافة ، لنرى صورة افريقيا على عصر نهضتها الاول ، وأرجو أن تذكر مقابلاتى التاريخية هذه . سنرى الحسن بن محمد الوزان ، ليون الافريقى ، كما يعرفه المؤرخون ، فهم لم يعرفوا آثاره الا فى اللغات الاوربيـــة ، وهكذا أسماه جده المتأرجح . أتعس حظ . قال يصف مقاعد العلم والثقافة على مدن نهر النيجر . يصف تمبكتو وهى تتلوى سنة ١٥٩٠ تحت سياط الجنود من الشمال فى المغرب ، يقودها مرتزق من الاسبان ، يريد تجارتها وثراءها لمن أجره » ..

« يعيش فيهـــا الاطباء والقضاة والفقهاء وغيرهم من سدنة العلم ، لا يخشون مسغبة ولا سلطة ، ينفق عليهم ملك البلاد ويرعى أمنهم كل الرعاية ، لينصرفوا لهذه المخطوطات يدرسونها كلما أتتهم من الشمال الافريقى ، يعيدون كتابتها ، يبيعونها فى سوق الكتب وهى نافقة »

فى هـــذا الامان والرفاء كتب محمود كاتى باللغة العربية ــ وكانت لا تينية ذلك العهد فى الاقليم ، يكتب بها المتعلمون ، كتابه الفاجع عن مأساة بلاده . لهـــذا

الامان عينه والعيش الرفيه ، وقف أحمد بابا كريما أمام غزاته يأبى عليهم أن يستخدموا مكانه فى القلوب ، وسيق فى الاغلال سوقا الى السجن فى الشمال ، لأنه كان يدبر ، فيما قيل عنه ، ثورة تطرد الغزاة ، وهو الذي ما عرف التدبير ولا العنف ، الى أن اضطر اضطرارا أليما ، ينافح عن ترابه . خلف ثلاثة عشر كتابا فى علوم الدين والتاريخ ، ما وجد الباحثون غير كتابين اثنين منها اليوم ، وكان كأخيه كاتى زنجيا خليطا من القارة ، ثقف الثقافة العربية ، وفقه فنونها.

حجة أخرى على الذين يقولون بانفصام العرب والزنج فى القارة ، آية بينة على أن العرب والزنج ما عاشوا الا أكفاء يتزاوجون ويعمرون . وصف ديوارت الذى نقلت عنه قبل قليل ، نموذج التجارة على الساحل الشرقى ، وصف التجار يقول : « انهم عرب سود ، يميل بعضهم للسمرة ، يتحدث بعضهم العربية ، وبعضهم الآخر لغة الاهلين » . ما عرف يميز من فرط ما اختلطوا وعاشوا جنب جنب ..

وما كانت الحضارة الشتيت فى القارة علما صرفا أو تجارة بحتا . كانت فى القارة فلسفات فى الحياة ، يصدر عنها الناس فى فكرهم وفى عملهم ، ولكننا لانعرف الا القليل عنها ، فهى لم تكن مدونة بالطبع ، كانت فى صدور السحرة والكهان ، وكانت أحاديث يتناقلها الاسلاف عن أخلافهم ، وتراها اليوم متناثرة فى كتب علم وصف الانسان . رجل واحد سيذكر له الباحثون بعده يده ، القس تمبل ، صاحب « فلسفة البانتو » لغة الشعوب التى تعيش فى أكثر بقاع وسط افريقيا والجنوب . درس القس الكدود هذه اللغة دراسة

متقنة سنين ، وكتب من خلالها ومن خلال عيشه الطويل فى الكنغو وترحاله فى زامبيا وزمبابوى وجنوب افريقيا ، كثيرا مما ينير للواحد بعض ألغاز السلوك البشرى فى هذه المنطقة ، التى ما زالت ترسل الرسل وتنبت الانبياء ، كما رأيت قبل قليل عقب استقلال زامبيا ، حين هبت هلن شاون ، تناهض العهد الجديد ، رسولة من السماء . ما كان فى وسع كاوندا الا أن يرسل الجيش يقبر سحرها . كتب الأب تمبل يخاطب أوربا وقد شرح مقنعا مكان الانسان فى الكون عند البانتو ، وسلطانه على الاشياء ، قوة الحياة ، سخر له النبات والحيوان والشجر ، والارض وكل شيء ، كما سنبين بعد حين فى حديثنا عن الفلسفة الافريقية ، يقول — وقد رأى بعينيه وأحس بحسه ما لم يره ويحسه الذين أتوا القارة ، غرورا بعض الاحايين لا يعنيهم رأى أهليه ، فقد جاء يعلمهم نعمات الحضارة الاوربية ، وانشغالا عنه بعض الاحايين ، لا يعنيه منه الا أنه أداة تحطب الصمغ وتجمع العاج : « أن اكتشافنا الفلسفة البانتوية ينبغى أن يقلق بالنا نحن الذين نتصدى لتعليم افريقيا ، وتدفعنا دفعا لنظرة جديدة لوسائلنا وأسلوبنا . مضت سنون ونحن نحسب أننا نحمل العلم والفلسفة للقارة السوداء ، فراغا نملؤه نحن . خيل لنا الذين تصدينا لتعليم الافريقى وتحضيره أننا ازاء لوحة سوداء ما عليها من الخبرة حرف ولا من العلم او الفن سطر : نكتب عليها ما نشاء ونختار . ألقى فى روعنا أننا أتينا قارة سوادها فراغها ، نعلم أطفالا كبارا لا قواعد عندهم ولا أسلوب ، نسوقهم سوقا الى حضارتنا نحن وثقافتنا نحن . ثم

نعيش بينهم حينا ، كما عشت ، فاذا الصـــورة غير الصورة . اللوحة ملأى بالرؤى والفلسفات ، وما عليك الا أن تتعلم لغة هذه الرؤى والفلسفات لتقرأ . ستقدر ، تحترم حكمتها وتعرف فلسفتها الكونية . بيننـــا وبين الانسان الاسود صلات ما وعيناها ، وكان من الخير لنا ولهم أن نعيها » ..

ما كانت افريقيا اذن فقيرة فى المادة ، كما رأيت عن باربورسا وليون الافريقي ، وما كانت فقيرة فى الروح ، كما رأيت عن تمبل . اتت مراكب الاوربيين فى هـــذه العصور ، فى القرن السادس عشر ، وحولت تقدمهـــا المادى والروحى وجهــــة غير تلك الوجهة التى كانت تسير ، وهى اليوم تعود مرة ثانية لتبـــدأ المسار الجديد على أضوائها هى لا أضواء أوربا الغازية وحدها ، وقد عرفت بعض ما كان فى تاريخها القديم من شـــأن ، ولكنى ، وقد عرضت عليـــك عصر النهضـــة الاول فى افريقيا ، أحب لنا أن نقف قليلا لنجيب على ســؤالنا الذى قدمنا به بعض هـــذا الحديث . من كفاء انقلو ودافنشى من أهل الفنون والعلوم على عصر النهضـــة الآخر ؟ وقبل أن أشرع فى هـــذا الشطر من تجوالنا فى عصرى النهضة هنا فى القارة السوداء وأوربا ، أريد لك أن تذكر اننا نتحدث عن بيئتين مختلفتين ، لايمكن لهما الا أن تنتجا رجالا مختلفين واتجاهات تتســـق وحاجات من يعتنقونها من الناس . لن تنتج القـــارة الافريقية ، وان أرادت ، دافنشى ، ولن تنتج القـــارة الاوربية ، وان جهدت ، دان فوديو . يسير كلٌ منهما سبيله ، لا عنادا واختيارا ، وانما قسرا وحاجة ملحة . أرض تعرف اللعوت وتنبت المهـــوقنى ، وأخـــرى

تنبت الصنوبر ، لا فضل لهذه على تلك • بينهما اختلاف
خير ما أقدم لك به هـــذا الشطر من بحثنا ، هو قولة لبازل دافدسن ، تلخص فى كلمات قليــلة مناخ هذه الفترة ، فترة عصر النهضة الآخر ، فى افريقيا . انه يصف المناخ الذى وقع فيه الغــزو الاوربى فى اخريات القرن التاسع عشر ومطالع هـــذا القرن ، ويدلل لك ـ دون أن يقول هذا ـ على صدق ماذهبنا اليه ، من أن غزو أوربا للقارة انقض على تقدم ونمو الافريقيين . لن يتاح لنا أن نعرف صورتهما ، فقــد ذهبا مع هذا الغزو ، وليست لدينا سبل لنعرف أى وجهة كانت ستسير افريقيا ، لو لم تكن هذه العلاقة بينها وبين اوربا ، علاقة السيد والمسود ، لا النـد والكفء . قال دافدسن : « أتى الغــزو الاوربى فى منتصف مجرى موجة من التحول. ضرب الغزو افريقيا فى لحظـة من لحظــات الاضــطراب الـكبير ، وكان الاضطراب نفسه نتيجة حوادث أخرى ، سبقته » . وهنـــا ينبغى أن نقف لنذكر اننـــا نتحدث عن قارة بأكملها ، وشعوب عديدة خليط ، لا ينطبق على غرب افريقيا ما قد ينطبق على الشرق أو الوســـط ، وكل الذى يستطيع واحد أن يقوله عن القارة كلها وشعوبها كلها ، عاجز من أن يصل لقلب الحقيقة ، ولكن شيئا واحداً يربط بينها برباط وثيق ، عبرت عنه كل منطقة بأسلوبها فى التعبير ، وان كان واحداً ما قالوه ، نعنى غزو القارة ، اغتيــــال الابيض للاسود ، مهما تنوعت صنوف هذا الاغتيال ، تجارة ، تبشيرا ، أو حكما مسلطا على الرقاب . أما وقد قلنا هذا فلنمض مع حديثنا ، مهما كان قلقا ذاك الحديث ، فغزو الأوربى للقـــارة

الافريقية ، يمكن لك أن تنظر له نظرة أهل المـال والتجارة لا يعنيك ما يحدث هذا من أثر بعيـد فى الروح ، ويمكن لك أن تنظر اليه نظرة أهـل الفكر والروح ، لا تقف عند أثر اقتصاديات اللقـاء الاوربى الافريقى . نظرتان ان انفردتا تخطئان . ما انفصـم الاقتصاد عن الثقافة . ما انفصمت المادة عن الروح . انا أميل للحديث عن الاثر الذى تركه هذا اللقـاء فى روح أفريقيا ، لأنى ضيق بنظرة اقتصادية حولاء للأمر تلقـاك انى ذهبت ، وأيا قرأت هـذه الايام حتى ليخيل اليك أن الناس ـ كل الناس ـ أصبحوا اقتصاديين ، وبقيت وحدك لا تعرف . يخطىء الذى لا يعطى اقتصـاديات هذا اللقاء بين القـارتين مكانها الاول ، ولـكن الآثار الروحية التى ترتبت على هـذا اللقاء جديرة بأن تجد مكانها الثانى ، فهى وان لم ترق ذاك المـكان الاول ، معنا اليوم تعتمل فى صدر القـارة ، وتكيف وجهتها العقلية والوجدانية ، وهى وجهة ذات خطر ، لايخطئه أحد فى تقويمها ، حين يتأمل الدوافع والنوازع التى تدفع الدول المعاصرة ، وتزعها . لن أقف قليلا عند الآثار الاقتصادية للقاء القارتين ، وان كنت أدرك أن للاقتصاد مقامه الاول . سـأقف عند الآثار العقليـة والوجدانية وأنا أعرف ان مكانهما ، لا يبلغ مكان تلك . .

عصر النهضة الآخر الذى أشير اليه هو العصر الذى تلا العهد الاستعمارى بأعوام قلائل ، وتبدأ هذه الرحلة العسيرة مع مؤتمر برلين (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥) ، المؤتمر الذى شطر القارة أشطارا ، لتنظم أوربا نهبها القـارة والسلب تنظيما ، وقد ولغت فيه أربعة قرون ، تقتتل بينها تارة ، وبين بعضـها وبعض الممالك فى القـارة السوداء تارة أخرى ، لكن الانسان الافريقى ما قهرت روحه .

ذهل حينـــا عن نفسه ، يتأمل هـــذه القوة العارية الضارية ، والاستعمار ، بكل ما فى الكلمة من شر الفه التاريخ ، ويتأمل هذا الكتاب المقدس جاء معه أو قبله بقليل ، يدعو للرحمـــة والـكفاءة بين النـــاس ، كل الناس . اضطرب الذكاء الافريقي بين هـذين ، لـكن اضطرابه لم يطل . ادرك ان نوازع الشر اقوى وأقدر من نوازع الخير · والقس دومنقو الذى سأتحدث عنه حين أتصدى عن الفكر الاســـلامى والمسيحى فى أفريقيا ، هو الذى صرخ يقول ، ولما تمض الا سنون على دخول الغزاة بلاده ، أن الاوربيين فى صمم عن رســـالة المسيح ، يكسرون القواعد منها ، طوال نهارهم منذ الصباح فى السادسة حتى المساء فى الخامسة . ربنا صريح خالص فى رسالة يعقوب ، الاصحاح الخامس « ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة . . . هو ذا أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولـكم المنجوسة ، منكم تصرخ ، وصياح الحصادين ، قد دخل الى اذنى رب الجنود ، قد ترفهتم على الارض . وربيتم قلوبكم كما فى يوم الذبح . حكمتم على البار . قتلتموه » . قيل هـــذا ولما تمض على تجزئة القارة غير ليلة . تقســـمها الساســـة خدام الصناعة الفتية المعتدية فى أوربا ، رسل التجارة فاضت على حدودها ، والمال تكاثر بعد الثـــورة الصناعية ، بين سنتى ١٨٨٤ ، ١٨٩٨ ، وهم الاذكيـــاء الاقوياء ، خمســة عشر عاما من الخداع والغزو والختال ابتلعت خمسة عشر قرنا من النمو الحضـــارى فى القارة · كانت أوربا فى سكرة من دنياها التى تفتقت أمامها فى عصر العلوم والصناعات ، لـكن العملاق الافريقي افاق من ذهوله فى أقل من جيل ، فى خمسة عشر عاما · فقط بعد

هزيمته فى نياسالاند مثلا ، تكونت «جمعية رعاية حقوق الاهالي » وغبار الغزاة ، ما زال فى الجو ، عام ١٨٩٧، وكاتبنا هذا الذى نعى على الاوربي ، اعتداءه ، وأبان فى وضوح الفجوة بين دعواه وواقعه ، كتب رسالته هذه التي اشرت اليها ، سنة ١٩١١ . ثقف شارلز دومنقو على يد المبشرين وكانوا أتوا نياسالاند قبل خمسة وثلاثين عاما من رسالته الغاضبة ، اعني خمسة عشر عاما قبل أن يتبع آثارهم البيض فى نياسالاند ، حكاما ذوى اثرة وسلطان ، وكان شارلز دومنقو بريد نهضة ـ شأن رجال الفكر العاملين فى كل قطر ، لأن « المؤتمر الافريقي الوطنى » تكون بعد رسالته هذه بعام واحد ، سنة ١٩١٢ فى جنوب افريقيا ..

ان صحوة القارة ليست كما يحسب الكثيرون منا بنت أمس. لقد تغيرت لغة السياسة والاقتصاد اليوم ، ولكن روح دومنقو ، ما زالت تحوم فوق أجواء القارة كما تحوم أرواح أشباهه من الذين يقظوا لحالهم البائسة ، ساعة استطاعوا الكلمة ، عرفوا فعلها فى النفوس . لقد مضت على الرسالة خمسون سنة أو تزيد الآن ، ولكنه بقى طابعا للفكر الافريقى حتى أواسط الخمسينيات من هذا القرن . تراه في قصة منقوبتي « المسيح الفقير فى بومبا » . قصة ما أفتأ أعود اليها كل حين ، فهى معلم من معالم الخلق المعاصر فى القارة . يعيش القس عشرين عاما ، يتنقل بين أحراش الكامرون ، ويقف يوما وقد هده الشك والقلق ، يرصد الذى أنجز ، فلا يرى الا التأرجح والضياع بين القديم والحديث عنه قطيعه . كما يعبرون يسأل خدمه ، لم يرفض الاهلون جهده ، فيسمع حديثا عجبا من قوم « فقدوا

المشيتين » كما نعبر نحن ، فيقفل راجعا الى أهله كسيف البال ، لا يمكن له « أن يبحر فى قارب واحد مع الاستعمار » . يعزز هذا كثير ، لكنى لا أستطيع أن أقاوم مقالة نكروما الشهيرة ، وقد برم بالتهم تلقى جزافا عن مصادر فكره ومنابع أعماله ، صاح يقول : « أنا اشتراكى ماركسى ، مسيحى ، لا يلتزم بمذهب كنيسة » . أراد ليدفع عن نفسه التبعية ، فانفجر يبين عن ذاته ، ومنابع الهامه . لكنى أحب أن أعود لهذا ، فهو تاريخ معاصر نعيشه ، حين أكتب عن «القومية الافريقية» ، جذورها البعيدة فى أرض القارة ، منظماتها التى احتوتها ، والاشتراكية ، وقودها الدافع . كل الذى أردت قوله الآن هو أن القارة ، ما استخذت تحت أقدام الغزاة . أشعلتها نارا فى السبعينيات من القرن الماضى ، فى كل اقليم ، وأعنى « كل » : حرب الزولو ، حرب المانابيل ، حرب الاشانتى ، حروب العرب فى نياسالاند ، ثورة الشاقا فى تنجانيقا ، وتجريدات لوقارد ضد أمراء الفلانى فى نيجريا ، وحروب الفرنسيين ضد ساموري على النيجر الاعلى ، ورابح فى اقليم شاد ، ومذابح الالمان فى شرق افريقيا ، وهى التى عرفت من بعد بثورة ماجى ماجى ، وحرب هريرو فى جنوب غرب افريقيا وغير هذه من الحروب التى عبرت عن غضبة الافريقى فى كل مكان ، ولو كنت أتحدث عن شطرنا الشمالى من القارة ، لأشرت لامامنا المهدى ، وعرابى ، وغيرهما من الرواد ، لكنى أتحدث عن أفريقيا السوداء ، التى قادها شاكا (ولد عام ١٧٨٧) الذى اختلطت فى حياته الاسطورة بالحقيقة ، وخلق منه سنقور ملحمة شعرية فى دواوينه الاولى ، على

الاخص في مسرحيته القصيرة « شـــاكا » ، « مسرحية شعرية لأصوات عدة ، مهداة للشـــعراء فى جنـــوب افريقيا » ، المسرحيـــة التى اثارت عنـــاية المؤرخين والكتاب ، فاصبحوا يصـــدرون بعدها الـكتاب تلو الكتاب عن هذا المحارب غليظ القلب ، الوطنى الشاعر، الذى ملأ الوديان دماء ، وخشي على وطنيته وطموحه ، أن تجنحا للسلم والهدوء ، فذبح الفتاة التى عشق ، ورثاها بكلمات دامعات ، وهو يفعل ، وانصرف لحروبه ليموت فى ميادين القتال » ..

ودان فوديو (توفى عام ١٨١٧) الذى حمل لواء الاسلام والعزة أمام المعتدين ، ومنليك (توفى عام ١٩١٣) الذى استعصى على الغرب ، وخزيت جيوش ايطاليا أمام الحفاة من عسكره فى هدوه ، والمرابط محمد الامين (١٨٨٦ ــ ١٨٨٨) وبطـــولاته فى السنغال ، والملك بهانزين (١٨٩٠ ــ ١٨٩٣) فى داهومى ، آلتى ما أسلمت تاريخها العتيد الا بعد أن أعينت الواغلين ، وملك الماتابيل لوبنقولا ، الذى عاش عمره حسرات ، وثار حين ضاق (١٨٩٢ ــ ١٨٩٤) فى روديسيا ، يقاوم ما لايقاوم من جيوش رودس ، ورابح الزبير الذى ســـاق الجحافل الفرنسية لجحيم شجاعته ، فى شاد ، وموتسا ، ملك البوقندا (توفى عام ١٨٨٤) الذى صـــوره ، فاحسن تصوير النموذج كله ، شـــاعر ملاوى الاول دافيـــد روباديرى ، وأرجو أن تغفر لى ، نقلى قصـــيدته هنا كاملة ، لأنها تصور فى زعمى اللقاء الافريقى الاوربى ، كما لا تصوره صفحات مما يكتب الكاتبون :

ستانلى يلقى موتسا

كانت أوجاما تميت

يومهم قائظ
ليلهم عليل بارد ،
البعوض القاتلَ فى ذيله
في طريقهم لمملكة •
هكذا كانت الايام والليالى
***
خط من الحمالين كده المسار
على ظهورهم ما يحملون من متاع
وخرق بلت • عليها كل ما يملك واحد •
صدورهم نتوؤها تراه
مائلة رؤوسهم
حليقة مدلاة
مجهدة تكاد تسقط
والشمس حارقة من فوقهم
عنيفة •
معها تقوم اجساد قومنا المكدودة
وحين ينتهى بها المسار تختفى
وفى اختفائها الذعر لهم
والهلع اليائس
لا يعنيه ما يعنيك
فكل يوم يجف جسم قومنا مع العرق
ييبس •
فريسة الذباب والبعوض
والمتاع فوق ظهره يؤود •
هكذا كان المسار
والصيف فى الطريق نحوهم
على جباههم تراه
***

وكل يوم يفقدون في الطريق بغلة ،
يتركونها على السهول للصقور •
وعند أول المساء
يسقط واحد من قومنا معنى ،
هيكلا • للمساس يتركوه
لكن المسار لا يقف ،
لقد ألف •
يناهد الطريق يلهث ،
زفرات ، زفرات اناس والبهم
يلهثون •
يحدوهم اللابس خاكيه ، يرود •
انه الروح التي تسوق
انه ضوء الامل

***

وفى مقيل يوم ، لا مقيل ، جائع مساره
كالعادة
قيظه ، رهابه ، كثير ،
النيل بان من بعيد
راقدا جنب توأم له عزيز
نيانزا • أزرق اللون على مد البصر
حوله خضرة خضراء •

***

افرح الخاكي نطاقه
وحمالنا فاغر الفاه
يكسوه العرق
عيونه تشوف لا ترى
وأسرع المسار يقفز
كأنه غزالة عطشى لقطرة •

***

قلوب قومنا تدق
والحمل خف
ألفت الاقدام أجسادها
المعروقة النحيلة
على حواف المـاء مطروحة
ولم يعد حديث الليل والذئاب والضباع
ذلك الحديث ·
آض الحديث بعد نيلنا والمـاء
عن كل مقدام أتى البقاع
احتوته قصة مما حكى قومى
على الاجيال
وأبصروا لآ يعنيهم البعوض ،
نيران قصر يرتعش
قصور موتسا الملك

***

نسوا وخلفوا وراءهم
عناءهم ·
الضحك تحمله نيانزا
عبر أمواه سعيدة
والرقص والغناء
والطبول
من أهل موتسا
الملك ..

***

وعند فجرنا الضحوك
أطلت القرى تحملق ،
أدغالها أمامها وراءها ،

أطفالها وراء أسوار القصب
ينظرون ، ينعمون •

***

ما رحبت طبول موتسا ؛ زغاريد النساء
للسفير جاء من بعيد
ابيض اللون ، وترحابنا لقومنا
مبين ..
اهتزت الرؤوس الشائخة
بعض من عاشوا طويلا عرفوا •
ما كان واغلا ما يعرفون
أشباهه أتوا وراحوا
ودقت الطبول كل أنغام النداء ،
وتنادى قوم موتسا
كبارا لقوم ماذا يفعلون ،
كيف يشيرون على سيدهم
فى طارىء
جاء فى أعقابه الرعب المروع
جزعوا ، لا يفقهون

***

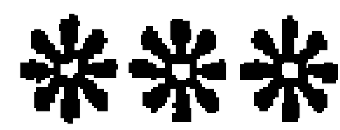
وعلى مصراعه فتح الباب القصب
وتولى الصمت شأن الجالسين
لا حديث ، لا شوار ، لا شغب ..
صمت تقويم وتقدير ..
دخل المليك حالك السواد
فارعا كالشجرة
خطاه اثر بعضها وئيدة
وراءه قدامه ، حراسه
كمنار عالى البنيان ، -

طل ..
فوق خاكي اللبس ، لوح
ونحيلا جنب موتسا الجسيم

قال « متو مويب كاريبو »
وكفه العريض تقبض اليد

النحيلة العظام ،
« مرحبا أيها الرجل الابيض ، » قال ..
وأوصد الحراس باب القصب ،

واختلى المقيم بالذى قدم
بعض وقت .
ودخـــــل .
اقتحم الغرب علينا
ودخـــــل



لك أن تمضي مع روباديروا فى خيـــاله ، وأن تدير الحوار الذى دار بين الرجلين فى ذهنـــك ، ولأعينك عليه ، أسوق لك مأساة روديسيا الجنوبية من كتاب فيلب ماسن « ميلاد عقـــدة » . وسأكتفى بها نموذجا لوسائل أوربا ، كيف رست اقدامهـــا فى القـــارة ، اختيالا وخداعا ، وما كان لوبنقولا ملك الماتابيل بعيدا من خيال روباديروا عن موتســـا . كتب عنه احـــد الرحالة وقد هاله ما يرى وراى روباديروا بخياله ، رأيت كثيرا من الملوك هنا وفى أوربا ، ولـــكننى لم ار حاكما للرجال أوقع فى النفس من هـــذا الرجل ، الا القيصر ربما والاسكندر .. « طويل ، قوى البنيـــة ، كل بوصـــة فيه ملك ، يســـير معتدلا كأنه الرمح ، رأسه خلفه أبدا ، وصدره القوى أمامه متفتح ، وبينا

يسير لاهيا قدما ، فى خطى وئيــدة ، فى يمينه رمحه الطويل ، يلمع ، ترى رجـــاله عن يمـــين وعن يسار ، يغنون امجاده وامجاد آبائه الملوك قبله . انه ملك من قمة الراس لاخمص القدم . وما كان جســـدا بحتا الرجل الضاري . كان عقلا ذكيا وسذاجة مبينـــة .

درب على يد ابيه الملك مزلـكازى ، وشـــهد بعينيه المبشر الابيض يجيء البلاد على النحو الذى وصـــف ورباديرى ، وما أن يستقر حتى يجيء بعده التـــاجر يغامر ، والغازى يحتل الارض ، يحمي مصـــالح ذلك التاجر ، ويعين المبشر ، وربما كان انفع لك واجدى أن تطل على عقله وفهمه معنى اللقاء الاوربي الافريقي خلال حـــديث قصير قاله فى مارس ســـنة ١٨٨٩ ، لمبشر اتى مملـكته اسمه هلم : « ارأيت كيف تقبض الحرباء الـــــذبابة ؟ تزحف خلفها ، حتى اذا اقتربت منها ، كفت عن الزحف والنفس فترة ، واســـتأنفت زحفها بطيئا ، تقـــدم رجلا أولا وأخرى بعد حين ، وعندما تكاد تلامس الذبابة تنقض عليهـــا بلسانها ، وتختفى الذبابة . انجلترا الحرباء وأنا الذبابة » هكذا راى لوبنقولا الأمر . ما أبعد الرجل في الذى قال ، ولكنه ما عرف كيف يحيى هذه الافكار . امضى مع هلم وثيقة ،

كانت النهاية لحياة ملكا ، ولبلاده وطنا مستقلا ، أمضاها لقاء مرتب مقداره مائة جنيه في الشهر له ولأسلافه وألف بندقيـــة ، وباخرة على الزمبيزى ، ولو كنت أكتب تاريخا صرفا ، لنقلت لك الوثيقة ، التى تعطي رودس وشركاته حق التعدين وامتلاك الارض وحماية الملك من الذين يجيئون يطلبون اليه أن يعملوا فى حقول النحاس والزرع ، وعاش يشهد أرضه تبتلعها شركات رودس ميلا بعد ميل ، وهو يقاوم ، ولو قرأت معى وصـــف

ماسن لحاله لذهلت • قال ، وقد انهكته وانهكت أهله الحروب وهو يشهد جثة الاسد القديم يكسوها الجدرى الذى قتله عام ١٨٩٤ « قضى الامر ، انتهى — لم تعد بطاح أرض الماتابيل يختال فوقها المحاربون السود ، على رؤوسهم الرياش ذات الالوان ، وفى أيديهم الرماح والدروق ، تلمع مع الشمس ، لمعان العافية التى كانت على الوجوه وفى الصدور . اختفى ذاك البهاء المفترس ، واستماضت بهم البطاح قوما آخرين . ما عدت ترى الا عجوزا مهلهل البدن ، يتدلى جلد ذراعه ، لا يسير الا وئيدا ، وجهه ينظر لتحت أقدامه ، يطاطىء ، يستحى، مذعورا ، لا أمل ، لا ذات • كان نمرا يختال مزهوا يذرع الارض يملكها والسماء فوقها ، ولم يعد فيه بعد حروب الماتابيل ، من ذاك النمر ، الا شبه بعيد . جلد نمر بهت لونه ، لقاء ذلك الحس المروع » ••

احثك حثا على أن تتم هذه الصورة التاريخية لقهر الماتابيل فى روديسيا الجنوبية ، بالصورة القصصية الرائعة « الفتح المفترس » لبيتر ابراهام ، وهو وان كتبها قصة ، ما بعد قط عن الحقيقة ، لترى معى ان الغضبة الافريقية التى بدأت بين الحربين بعد ذل وعار طال ، واستحالت ثورة فى أعقاب بل أثناء الحرب العالمية الثانية ، قامتا على استرداد «هيبة» الانسان الاسود واسترداد رجولته ، التى اذلها الابيض فترة الاستعمار . لعبت العوامل الاقتصادية والاجتماعية دورا نعم ، لكنه ثانوى ان قيس بهذا النزوع للقصاص •

ان أقدام الغزاة لم تطأ روح افريقيا ، وان وطئت جسدها • ترى ذلك بينا واضحا حين تستعرض تاريخ المقاومة الافريقية ، سلسلة ما انقطعت حلقة فيها ، بدأت كما ذكرت قبل قليل مع شاكا ودان فوديو وغير

هذين من رجال عصر النهضة الآخر ، وارجو الا تمل ان أعدت لذاكرتك بعض تأريخ ، لادلل لك بهـــا ، ان موت هؤلاء فى ميادين الصراع ، اتصل بميلاد فئة من القادة ، على أكتافهم قامت الثورة الافريقية ، وتقوم اليوم ، على اختلاف فى النهج تقتضيه حرارة الايمان أو الحكمة نتاج تقدم العمر ، عند كل . أنا معك التأريخ ثقيلة ، لـكن انظر الى بعضها معى لترى ان التنظيم الادارى الذى جاء به الاوربيون ، فادخلوا به الامان فى حياة الافريقى ، والتعليـــم الاوربى المعـــاصر ، الذى ادخلوه ، وكانوا يحسبون انه ســيخلق من الافريقى مسخا من الاوربى ، والاقتصاد الذىانقذ الافريقى قليلا من نزوات بيئته العاصفة ، لم تنس الانسان الافريقى انه يحصل على هذه لقاء رجولته ، واختار رجولته على طعامه وشرابه ، وما كان كثيرا على أية حال . أحب مريحات المدنية الآلية وانتفع بها ، ولـكنه رجع لقديمه على ضوء ما أعطته الجامعات الاوربية من نهج للمعرفة ، فاكتشف نفسه ، وطمح لمكان قريب من مكانمعلميه ، فرجا الاوربى أن يفسح له مكانا معه ، أن يفتح له فرجة معه ، ولـكن الاوربى ما فهم عنه ما يقول . فئة قليلة فى أعقاب الحرب العالمية الثـانية ، رأت فى رجوات الافريقى ، شيئا جديرا بعنـــاية أوربا ، وكانت فئة صالحة لا تملك الا أن تقول ، لتهزأ بها الفئة الكبيرة ، أقول رجوات ، لأن الافريقى حتى أخريات هذا العقد الذى أرصد لك أفكاره ، ما عدا هذه السبيل . ولنأخذ مثلا ، ما أدرى هل أحسن أصدقاء لوممبا حين نشروا كتابه « الكنغو ، بلادى » بعد وفاته ؟ أنا واثق انهم احسنوا للتاريخ، لـكنى غير واثق انهم احسنوا لصورة المجـــاهد التى فى ذهنى وذهنـــك . فى منتصف

الخمسينيات ، كان يكتب في توسل واستجداء ، يطلب للأوربى أن يشرك الافريقى فى الادارة ، أن يبقى ليقوده من يديه لتقدمه • ما كان يطلب استقلالا • وتقابل هذه الرجوات بالفترة العاصفة من حياته التي انقلبت غضبا جامحا ، أخرجه حتى عن حدود اللياقة ، يوم وقف يخطب ، يعلن استقلال بلاده ، ويلعن ضـــيفه الملك • لا يسعك وانت تقرأ تلك الخطبة الا أن تخلص الى ان الافريقى ، أكره اكراها على الثورة والحقد منـذ لقى الاوربى ولقيه . ولنقف قليلا لندلل على أن لوممبا لم يكن الا بضعا من شاكا . يدور الحوار الذى اعربه لك بين « الصوت الابيض » وشاكا فى مشهـــد من بعض مشـــاهد المسرحية التى اشرت اليها ، واحب لك ان تذكر أن مشاهد هـــذه المسرحية وقعت عام ١٨٢٤ ، حين التقى بطل الزولو الدموى بالاوربيين ، وبين الذى يقول وقال لوممبا مائة وثلاثين عاما من بعد ، مشابه :

الصوت الابيض

صوتك احمر من البغض ، شاكا

شـــاكا

أنا ما أبغضت الا الظلم

الصوت الابيض

انه احمر من بغض يحترق معه قلبك احتراقا ، شاكا
ان ضعف القلب مقدس ، وزوبعة النار فى جوفك نجســـة

شـــاكا

ليس بغضا أن تحب أهلك ، استمع :
لا سلام والسلاح فى يدى يدك
لا سلام والطاغوت ..
لا أخوة ان ضاقت بنا الارض ،

انتم الاعلون ، ونحن فى حسـابكم ،
قدر . . .
سعيت كي نكون كلنا معا ،
اخـــــوة . . .

الصوت الابيض

اثرت عامدا كل الجنوب ضدنا
نحن الرجال البيض . . .
أين ســـــــميك ؟ . .

شـــاكا

ارايت ؟ .. هذا هو انت ، صوتك الابيض
شطر صوت ولا صوت
صوت دجال يزيف ..
صوت من يقوى ، ضعيف صارعه ،
وضمير من بعثوا بك عندنا
عبر البحار ، ضمير المالـكين ..
انا لم أكره الاذن الحمرا ..
على النقيـــــــض ..
لا ولا أهلى ، تأكد ..
رحبت ارضى بهم رســــــــلا
من ســـــــماوات عرفنـــاها ..
من آلهة ..
ودفقنا تحت أقدام الرســــــــل
كل أوعية الشراب ، ترحيبا بهم
ومن أفواه أهلى ، سمعت أطيب الـكلام
يزجونه لـكم ، رسل الاله ، أهلا ..
ثم قلتـــــم اعطـــونا ،
فأعطينا الذى نملك ،
عاجا ، عسلا ، وزهورا من قزح ،

وبهارات عشـــــقتم وذهب ،
وقرودا أضحكتكم ، وأحجارا أثمن
الاحجار فى الدنيا ، وببفاوات
عرضتم عوضا منها هـــــدايا
لا تفيد ، وعبثتم بالخرز ،
ورأينا بعد هذا رصاصا وبنادق
تحصد الاهل ولا تبقى مجادل ..
عرفت بعـــدها ، عرفت ،
واســـتحلت عقــلا
وجرحت ،
ما عاد ما أملك الا الجرح
والاذى والامتهـــان
فى فؤادى وفؤاد أهلى
وفى الروح الـكسيرة ..

***

ما ذكرت لوممبـــا الا لأنه وصـــل قمة الغضب ، وقابلته بشاكا ، لتدرك معى أن هذا التقليد متصـــل الحلقات بين الانسان الافريقى والاوربى . أكثر الذين قادوا بلادهم لاســـتقلالها ، كانوا يريدون للأوربى أن يحترمه ، أن يأخذ بيده ، أن يسرع الخطى به ليشترك فى العمل لبلاده . رجوات ماعدت هذا ، ولـكن الاوربى سخر منه فى مجالسه الخاصـــة ، ولجأ للمداورة فى محافله العامة ، غرورا وجهلا . غرورا بقوته ، وجهلا بالقارة . ما عرف أن شـــارلز دومنفو الذى أشرت لـكتاباته عام ١٩١١ ، كان ينقد هذا التحقير لشباب ولدوا فى فتراتك ، ما كانت بعيدة عن هذا الذى غضب له ، ويقينى ان بعضهم كان يعرف عنها . كيف تفسر الظاهرة الفريدة فى القاهة ، ان لم يكن هذا هو الواقع ؟

أكثر قادة القارة كتاب من نوع أو آخر ، وتاريخ الفكر الافريقى مثله مثل أى تاريخ يقوم حديثه على قديمه لحد . خرجت كتابات دومنفو ، وكنيـــاتا فى العشرين من عمره ، اذ ولد عام ١٨٩١ ، وشهد بعينيه ، وأن كان غلاما ، لورد ديلاوير يقـــتطع أرض الهضـــاب فى الـكيكيو شبرا شبرا لأعوانه من البيض عام ١٩٠٢ ، وولد الازهرى عام ١٨٩٨ ، ويقول لى رفاقه فى الجامعة الامريكية ، انه كان مغرى بجورج واشنطن، يقول لهم ، سيحرر بلاده يوما من الايام ، كما فعل واشـــنطن ، وقبله باعوام سبعة ولد هيلاسلاسى ليجد بلاده « قطعة شطرنج فى السياسة الدولية » ، وولى بعض شئونها ولما يعد فى التاسعة عشرة من عمره فى هرر ، وفى عام واحد هو عام ١٩٠٦ ، ولد سنقور والزعيم اولو ، هذا فى نيجيريا ذات التـــاريخ القلق الدموى ، منذ اتت مراكب الاوربيين على النيجر ، وذاك فى السنغال ، وثلاثة أعوام بعدها عام ١٩٠٩ ، ولد نكروما ، الـــذى شق على أوربا أن ترى فولتير ، كما أسماه بعضهم ، يمزق سلطانها فى القارة ، فاتخذت من بعض أعمـــاله تكأة لتمزيقه ، ولن أقف عند اودنقـــا الذى ولد عام ١٩١٢ ، وكتب منذ شهور يقول : ان الحرية لم تات بعد ، أريد لأعود بك لدومنفو ، لان موديبو كيتا الرئيس السابق ولد بعد أربعة أعوام بعد ثورته ، عام ١٩١٥ ، وعبرت طريقى فوق هوفت بونيه الذى ولد عام ١٩٠٥ ، وعبر ازكوى الذى ولد بعده بعام ، فقد خمدت فيهمـــا جمرة النضال ، ازاء مالفيا ويلقيان من مشقات وعواصف العمر . اريد لاقفز للجيل الجديد الذى يصنع الحوادث اليوم ، نيريرى وكيوابوى . رأيا النور فى عام واحد ، عام ١٩٢٢ ، واتى بعدهما بعامين كواندا . ثوار ثلاثة

اندر كل واحد منهم نفسه لمثـــل ، تقض مضـــاجع الاوربيين ، يكاد كل واحد منهم أن يكون شجى فى حلق الخصوم ، لأنهم لا يعرفون كيف يأتون منطقهم الكاسح ، تلسع الخصوم لسعا ، لأنه منطق من نموذج ما الفوه. منطق فيه حرارة الايمان واعتـــــدال الواثق من حقه ، لا هياج ، لا ســـباب ، واستقامة فى العيش والعمـــل تقف صلبة على أرض دين يتمسكون به تمسك العجائز، ومع هذه الفئة القائدة أوبوتى الذى قلب وجه يوقندا ، ويأبى على أحد أن يعرف أين مواهبــــه ، صامت ، بعيد عن الزحام ، وفيها عبد الرحمن بابو ، الذى ولد فى نفس العام ، عام ١٩٢٤ مع أوبوتى وكاوندا وقلب وجه زنجبار بحيويته السياسية والجسدية المروعة ، وسيكوتورى الذى يناضل ليبقى ..

أطلت فى هذه التأريخ لأقول شيئين : اولهما ، ان تاريخ الفكر والعمل الافريقى ليس بالحداثة التى يعد بعض النـــاس ، بدأ مع تمبكتو وجن وسفالا وكلوا ، وســـار نحو دان فوديو وشـــاكا ولوقنبولا ، وما انقطع المسار بعد هؤلاء . حمل الشـــعلة ازكوى ونكروما ، ويحملها اليوم نيريرى وكمبابوى وسيكوتورى ، موكب متحرك لا انفصام فيه ، وان اختلفت الوانه وتعددت وسائل تعبيره عن واقعه ومثاله ، بمر الزمان والاحداث. ثانيهما ، انى اردت أن أوحى اليك بان القارة فى صخب فكرى الآن ، ولن يطول بها الوقت بعد الآن . سترسى مراكبها مكانا ، وان كثرت أصابع الواغلين ..

يكفينى هنا أن عرضت عليك أن الافريقى عاش عصر النهضة الاولى على أيام العلم فى جن وتمبكتو وسفالا الزاهرة بالتجارة والثقافة الخليط ، واختفت نهضـــته فى القرن الخامس عشر ، وكانت فى طريقهـــا لتبنى

امجادها ، على النحو الذى فعلت اوربا ذلك العهد ، ونهضت مرة اخرى فى القرن الماضى ، وقد يقظت بعد ذهول ، ولم تستخدم امام سلاح الاوربى القاهر ، بل خرت صريعة فى الميدان ، حتى كانت القومية الافريقية فى العهد الاخير ، وهى الحركة التى قامت على هاتين النهضتين، واضحة المعالم والسمات ، والماضى البعيد، يتراءى له ، ولا يكاد يمسكه ، وان كان قد شرع فى التعرف على سماته ، كما ترى فى الذى يكتب الشيخ ديوب ، وبعض الباحثين الاوربيين والامريكيين ، يضعون القواعد للقومية التى قاومتها اوربا بكل سلاح ، تحدوها قولة ارسطو المعلم الاول حتى فى هذه ، يسوق النصح للاغريق عند استعمارهم لبرقة وقرطاجنة : « فتتوا القوم قبائل وجماعات ، أزيلوا من على ارضهم السمات التى تتصف بها القومية فى كل مكان تستعمروه ، لتذب على أيديكم عباداتهم وطقوسهم الدينية الخاصة بهم ، الحقوهم بالعقيدة العامة عندنا . بعبارة أوجز : اعملوا ما فى طوقكم ، ليذوب فى كيانكم كيانهم ، ولتنسفوا كل سلطة لعاداتهم القديمة » . وفعلوا ، بل تبعوا النصح خطوة خطوة تعززه تجاربهم منذ أرسطو ، فقد كان العهد الكلاسيكى طفلا بالقياس لعصر التوسع الاوربى الذى بدأ واهنا يتحسس الطريق فى القرن الخامس عشر ، واكتسى عافية وشهوة للرخاء والرفاه على عهد الثورة الصناعية ، وعار ، كما نقول عندنا ، لا يهاب شيئا . قوته المادية الآلية أداته ، يضرب بها حيث شاء ، انى شاء ، مبرره الشفاف ، عبء الرجل الابيض ..

في الأدب الأفريقي المعاصر

تعيش افريقيا اليوم نهضة شاملة ، ولـكن معارك الاستقلال السياسي من ناحيـــة ومعارك الاســـتقلال الاقتصادي من ناحية أخرى ، تستأثر باهتمامنا أكثر ، وهي حرية بذلك لا شـــك ، فالقارة قارة الغد في أكثر من معنى واحد . لـكننا لن ندرك الحقيقة كلهـــا عن افريقيا ، ان حسبنا ان هـــذه المعارك الاقتصـــادية والسياسية تدور في فراغ فكرى لا مكان للذكاء فيه أو الخلق ، لا يلعب الرأى دورا فيه ، ولا تحدد الحساسية والوجدان معالمه . ليست القصـــة كلها قصـــة طعام وغذاء وكساء . أتت هذه المعارك في أعقاب نهضة فكرية معاصرة ، تستمد جذورها الى أيام الاستعمار الاولى في العشر أو العشرين عاما الاخيرة من القرن التاســـع عشر ، كانت حينذاك يقظة فكرية ترود الطريق بالطبع ، تستكشف معارجه ، تعنى بالمقـــالة المثيرة والخطبـــة العاطفية ، والمحاضرة التحليلية ، وتنظر تارة الى الزنوج في الولايات المتحدة تستلهم جهـــاد رجالها الاولين في سبيل الـكرامة الانســـانية ، وتارة الى الـكنيسة تستلهم تعاليهما البشرية في وحدة الانسان ، اخـوته . ثم تغيرت الحال على أيامنا هذه تغييرا جوهريا اقتضته الحياة خارج القارة ، واقتضاه التقدم الذى امتد اليها

من أوربا والولايات المتحدة ، والدور الذى شرعت تلعبه بلاد ما كان لها فى مصائر هذه القارة شان كبير قبل الحرب الكونية الاخيرة ، جمهوريات السوفييت واقطار آسيا ..»

تبدأ النهضة الحديثة فى الآداب والفنون مع خمسينيات هذا القرن ، وان كنت اكره هذا التحديد ، خشية أن يلقى فى روعنا ان ذينك العقدين لم يكونا استمرارا للذى سبقهما وتمهيدا للذى نعيشه . الحق هو ان هذا التحديد يعين على الحديث ، لا يعين على شيء آخر ، لم يعد المفكر الافريقي فى أيامنا هذه ينظر خارج قارته الا بقدر ، اتي مرحلة من النضج يستطيع معها النظر الى تراثه ، وقد ازيح الستار عن كثير منه ذي خطر ، وان لم يكن ذلك الخطر الذى تراه فى بعض ما يكتب الكاتبون منهم الآن ، وينظر الى نفسه ، وقد تعقدت مع اقتحام الاوربى عليه داره وادارته بكل معنى يجيء فى بالك ، وتعقدت نظرته للحياة تبعا لذلك ومضيا مع حاجياته المعنوية والمادية . نطق اليوم جيل من الشباب والكهول ترحل فى أوربا وأمريكا وداخل قارته ، وثقف ثقافة مست حياته الآلية والعاطفية والفكرية أعمق المس وهزتها من القواعد . لم يعد هذا الانسان واحدا فى قبيلة الآن ، يأتمر بأمر زعمائها وكهانها لا يتاح له الا ما يتاح لكل فرد فى القبيلة . المثقفون الآن مواطنون اكثرهم فى بلد متكامل ، يشركون الدولة آراءها وأعمالها ، وبعضهم يصنع هذه الآراء ، يقوم على تنفيذها أحيانا أخر ، ويدرس معقبات هذا كله من بعد ، ليصلح الخطو ويأمن العثار ، وأهل الرؤى سادة المستقبل من هؤلاء المثقفين لا يحسون

بالوطن الواحد الذى نماهم على انعزال ما عرفوا الا ترابه والا سعده ونحسه ، يرونه الآن وطنا فى مجموعة متشابهة من الاوطان . ولاؤهم الاول حقا له فهو الذى عرفوا منذ الصبا ، ويزاحمه ولاؤهم للقارة الافريقيــة اكتشفوها اليوم وحدة متساندة لا يحول دون تحقيقها فى السياسة والاقتصاد الا « آلهة الصفيح » ذوو الاثرة والانانية كما يرى الثائرون الفاضبون ، والا اختــلاف المناهج والسبل ، كما يرى المؤمنون بها من المحافظين .

ما أكثر ما تسمع هذه الايام « انا افريقى » عبارة ما ألفها الناس من قبل . كانوا حين يقظ التــاريخ يفتح عينيه ، يروبا ، كيكيو ، بانتو ، ومشـــوا خطـــوة مع الزمان الاوربى ، فأصـــبحوا نيجيريين ، كينيين ، وكمرونيين ، ومشـــوا مرة أخرى مع الفجر الجديد فأضحوا افريقيين تجمعهم العاطفة النبيلة ، والمصلحة المستنيرة ، الا الذين يرهبون ما تجىء به الايام ، وقد أوشكت أيامهم على النهاية . يمكنهم الخوف والتردد ، من قابل لايعرفونه ، والحرص على حاضر صـــــلد ألفوه ..

كان الانتاج الادبى فى القارة مستحيلا بادىء الامر، لأن المواهب كانت تنفى نفسها طوعا أكثر الاحيان وقسرا بعض الاحايين . احتوت باريس مثلا منذ الثلاثينيات شبابا من الزنوج راح بعضه يطلب العلم وبعضه يطلب العمل وبعضه لا يطلب الا الذى يلقاه . أنشأت الطلائع من هذا الشباب مجلات عديدة ، بقى منها على الايام :

« برزانز افريكان » ، صحيفة لن ينصف باحث اجتماعى أو فكرى بحثه ان لم يضع لهـــا مكانا مميزا فى الذى يرصد من مظاهر التقدم الفكرى والسياسى فى القــارة

الافريقية ، والمارتنيك ، وجزر الهند ، وهايتى ، وملاقازى • صدرت عنها ، وقد رسخت اقدامها كصحيفة ادبية سياسية ، مجموعات من الشعر والقصص والبحوث ، هي اليوم نافذة مضيئة على العقل الزنجي ، فانا لا اعرف كاتبا يستحق اسمه أو سياسيا مهما كان لونه ، لم يكتب لهذه المجلة وقتا ما فى حياته . ولعلك تدرك بعض الذى اعنيه ، حين اشير الى هذه المجلدات الاربعة الضخمة التى تحمل بين دفتيها بحوثا ومقالات باقلام طائفة من الشباب والكهول بيدهم الآن مقادير بلادهم العدة ، كانوا من قبل كتابا وشعراء وفلاسفة سياسة . اشتركوا فى المؤتمرين اللذين عقدهما الكتاب والفنانون الزنوج فى باريس مرة ، وفى روما مرة ثانية ، بدعوة من مجلة « برازانز افريكان » التى جمعت البحوث فى هذه المجلدات القيمة ، مقالات فى الفكر السياسى ، والفلسفة الافريقية ، والشعر ، والدين ، وكل مظهر من مظاهر العقل الافريقى الحديث ..

ثم جاء العضد لهذه الصحيفة الرائدة فى باريس من الجامعات فى العواصم الافريقية ، داكار ، اكرا ، عبادان ، وكمبالا . اتجهت جامعات هذه العواصم نحو شئون الفكر العامة وكانت يتيمة من قبل ، وأولتها العناية التى تجدها شئون العلم الخالص والبحوث المتصلة بها فى كل لون من الوان المعرفة ، وأعانت بذلك على الميلاد الفكرى فى القارة ، واطلقت المواهب الحبيسة من عقالها ، ووقفت بحوثها جنبا لجنب مع البحوث التى تصدر عن لندن وباريس وموسكو وواشنطن . اتت هذه الجامعات بذلك القدر من الادارة والمال اللذين

لا سبيل الي حياة الفكر الا بهما ، ولن يتم حديث عن صحوة افريقيا الشاملة الا بوقفة لدى بعض هذه الصحف ..

نشأت فى عبادان (نيجيريا) مثلا دائرة للدراسات التي لا تتصل بعلم بعينه أو فن بذاته ، ولا تتصل بدائرة اواخرى من دوائرالجامعة ، ولا تخاطب مستوى من التعليم المدرسي ، انما تخاطب العقل الذكى أنى وجد ، فى الحقل أو فى العمل أو فى المصنع ، رصد مجلس الجامعة أموالا طيبة لهذه الدراسات ، فاستقدم القائمون على أمرها شبابا من أوربا ، ما عرف الاوربى حاكما فى القارة ، شبابا عاش خير أعوامه خلال الحرب ، وتشرب لذلك مبادىء الحرية للناس كل الناس ، والعدالة الاجتماعية للطبقات ، ونذر حياته لهما يشيع دروسهما أينما كان ، لا يحقر ثقافة ، وان سذجت ، ويمتع بالافريقى ، لا لأنه عادية من العاديات ، بل لأنه يعرف حياة تستأهل الدرس والتعمق ، ففيها ــ وان بدت بلهاء للعابر ــ حكمة وأصول ، فيها فلسفة ترفد الموكب البشرى الذى غفل عنه طوال القرون ، وتخصبه وتثريه . على يد حفنة صغيرة من هؤلاء ولدت مجلة « بلاك أورفيوس » فى عبادان وعملت فى حياتها القصيرة التى لم تعد عشرة أعوام ، عملا جديرا بالاكبار والاجلال ، لا للمواهب النيجيرية وحدها بل لكل المواهب الافريقية ، نشرت القصة القصيرة ، والشعر الحديث ، والمقالة ، وتذيع الفنون الافريقية الاخرى ، كالتصوير ، والنحت ، وتذهب فى كل ركن تبحث عن المواهب ، تعينها على النشر والاتصال بالقارئين ، واكبر يقيننا الآن ان مجلة « بلاك

اورفيوس » لن تظل وحدها فى الميـــدان ، فقد رايت منذ شهور ، حفنة مماثلة من هـذا الشباب الافريقى والاوربى تعد العدة لاخراج صحيفة فى كمبـالا لتخدم قضايا الادب والفن فى شرق القارة ووسطها ، كما تفعل مجلة « بلاك أورفيوس » فى غرب القارة ، واتتنى من بعد مجلة « ترانزشن » فاذا هى ـ وقد صدرت ثلاثة أعداد منها حتى اليوم ـ تولد مكتملة النضج ، فيهـا شـعر ، وقصـة ، وبحث ، وانباء أدبية ، كلها حقيقة بعنـاية من يريد ليعرف ماذا يدور بخلد القـارة ، ويعتمل فى وجدانها الجديد ..

يجد قارىء هذه المجلات الادبية أسماء غير تلك التى سمع عنها من قبل . لن يجد سنغور ، فقد انصرف للبناء السياسى الا قليلا الآن ، ولن يجد ازكوى ، فقد خلق مدرسة فى الفكر وشرع الآن فى الحقل السياسى الذى هيأ له من قبل ، ولن يجد كنياتا ، فالعمـل الحزبى يستغرق كل الذى بقى فى الرجل الـكبير من جهد . وليست السياسـة العلمية وحدها هى التى أخرجت هؤلاء القادة من سبيل العمل الفكرى . حقيقة الامر هو ان هؤلاء وكثيرين غيرهم ممن دخلوا مسرح الحياة العامة قبل اليقظة الشاملة ينتمون لجو فكرى انقضى عهده . كانوا يعيشون ثقافة أوربية وأخـرى افريقية فى آن واحد ، ولـكن الشبـاب المعاصر فى القارة لا يعيش ذلك التمزيق المؤلم ، ولم يعد يعتذر عن افريقيته كما كان يفعل بعض الاولين . ملئت نفسـه ثقة الآن وعزة ، ياخذ العلوم والآداب والفنون والحرف من أوربا ، ويعنى أكثر العناية بادوات هذه النظم ، ليعمل بها فى بلاده الصغيرة من ناحية وفى قارته من

ناحية أخرى . اقول ادوات هـذه النظم ، لا النظم نفسها ، فهذه بعيدة عن مناخه اكثر الاحيـــان ، لا تتفق والتراث الذى تيقظ له الافريقى الحديث ..

لقد هيأ الاولون الارض للشباب المعاصر حتى ليرى بعض الناس مشابه بين نكروما ، وروسو ، وبين سنغور ومنسكيو ، وبين أزكوى ، وفولتير ، مشابة غير دقيقـة ولا شك ، ولـكنها تضع هؤلاء الـكبار مكانهم فى الفكر الافريقى على نحو يقرب لنا هـذا المكان ، لأننا أعرف بالثورة الفرنسية منا بالثورة الافريقية ، هذه نعيش أيامها ونعجز عن الحكم عليها ، وتلك فى ذمة التاريخ ، لا مشقة كبيرة فى معرفة أدوار رجالها . ترى فى الادب الافريقى المعاصر أسماء تصعد كالشهب هذه الايام ، ويخيل الينا مما نراه ان الحقلين : السياسى والفكرى بسبيل أن يتخذ كل منهما سمته ورجاله ، اذ لم تعد حاجة لـكل واحد أن يجمع العالم فى شخصه فيكون الصحفى ، والاديب ، والسياسى ، والثائر ، فى وقت واحد . سينصرف للأدب رجال ، وللسياسة رجال ، فما عادت هذه النظم يسيرة ، كما كانت ، تعقـدت وسـائل السياسة وأهدافها وتعقدت وسـائل الفكر وأهدافه الآن ، والقصة ، فى نهاية التحليل ، قصـة تعمق للنظام الذى يختاره المفكر ، وقصـة وقت يتاح للواحد ايامنا هذه « المضروبة سوط » ــ العجلة ..

المقـــالة

لم يكن الادب الافريقى ليختلف عن غيره من الآداب فى استعانته بالمقال القصير أو البحث الموجز للتعبير عن نحواه ، فعند منتصف القرن المـــاضى اتخذ هـــذا الاسلوب فئة من الساسة والمصلحين ورجال الدين ، ليبشروا بآرائهم الجديدة فى الســـياسة والاصـــلاح وليذيعوا تعاليم المسيحية بين الناس . على راس هذه الفئة المناضلة ادوار بلايدن ، أقدم السياسيين فى غرب افريقيا التى كان يعدها كلها موطنه ، وان كان مواطنا ليبريا فى الاصل . طاف بلايدن غرب القـــارة وكانت أوربا قد ملـكت الامر كله فى ذلك العهد وحملت متطوعة « عبء الرجـــل الابيض » • رأى بلايدن من مصـــاعب قومه ما دعاه الى الترحال فى أوربا والولايات المتحدة ، يدعو الى شراك الاهلين فى القارة فى نظم الحكم ، اعدادا لهم وتهيئة للاستقلال فى النهاية • كتب مقالات فى صحف تلك البلاد والقى محاضرات ، جمعت من بعد فى كتاب يعد اليوم مرجعا فى دراسات القومية الافريقية ، على ذلك العهد الذى تاه فيه الاوربى بقـــدراته ، يحمل الناس حملا على بلع آثارها ، لا تعنيه نتيجة . والامر الذى لا يشـــك فيه باحث ، هو أن بلايدن والقس كراوثر ، كلاهمـــا كان يســـتلهم فى الذى يكتب

زنوج الولايات المتحدة على ذلك العهد ، وكانوا كما تعرف يعيشون حركة فكرية صاخبة تقتل فيها الآراء السياسية والدينية بين المغالين أنصار العودة للقارة الام والمعتدلين أنصار الكفاح فى الولايات من أجل المساواة والعدالة • خير ما يمثل الجدال على ذلك العهد آثار دكتور دى بوا الذى كتب « روح الزنوج » ، مقالات نسجوها بادىء الامر وجمعها فى كتاب لا زال يحتفظ برونقه اليوم ، ويقينى أنه سيبقى واحدا من روائع ما كتب الزنوج ، فالنسخة التى قرأتها منذ شهور طبعت عام ١٩١٨ وهى الطبعة الحادية عشر ، ويجدر بى وأنا أتحدث عن الملهم الاول هذا ان أقول ان الرجل ، وقد أربى على التسعين سافر منذ فترة الى اكرا ليشرف على « السيكلوبيديا افريكانيا »

أما خصمه ماركس جارفس الذى دعا لصهيونية افريقية وعودة للقارة الأم فلم يجد من التقدير والاكبار ما لقيه دى بوا ، وان كان قد اثر ابلغ الاثر على القارة الافريقية أيام كفاحه : يروى مؤرخو القومية الافريقية مثلا ان ملك سوازيلاند فى العشرينيات لم يكن يعرف اسم زنجى خارج اقليمه الا اسم هذا الرجل ، الذى اسمى نفسه فى وقت من الاوقات « رئيس جمهورية افريقيا » . لو عاش على ايامنا هذه لعد مهرجا أكثر منه مصلحا ، ومـا كان فى الحق كذلك . كان كثير الاحلام ، قضى أخريات عمره يخطب فى هايد بارك ، وكانت رحلة ذهنية طويلة ، بدأت فى جمايكا حيث ولد ، وانتهت على مقاعد تلك الحديقة الرطبة لا يلوذ بها الا الذى عذم الملاذ ، سمت أو سفلت مراغبه ..

ثم انتشرت معاهد العلم ، وعادت حفنة من الشباب

من مدارس الولايات المتحدة واوربا ، فصدرت فى أكثر من ركن فى افريقيا صحف تدعو الى الاصلاح الاجتماعى ، وتطلب الى فرنسا وانجلترا قليلا من التطور السياسى ، روح كسيرة تتهيب الوضوح فى الطلب ، ولا تعرف يقينا كنه هذا الاصلاح السياسى الذى ترجوه ، واحيانا تشحذه . كانت يد الاجنبى قوية ضارية ، ويد الافريقى رخوة لا تقوى على كثير.

ثم هب على القارة اعصار . هب عليها اعصار حينما رجع دكتور ازكوى ورفاق له كثيرون ، وكان أمادا شابا فى زهرة العمر حين عاد من جامعة لنكلن فى طليعة الثلاثينيات، وسيدرك الذين تتبعوا تقدم مصر نحو العصر الحديث والاستقلال ، معنى قولى أن جريدة « رائد غرب أفريقيا » فى الثلاثينيات من قرننا هذا ، حملت العبء الذى حملته جريدة « اللواء » فى مصر فى العقد الاول من هذا القرن ، وكانت صحيفة مقالة كما كانت أختها تلك . كان مصطفى كامل سوطا لاهبا على الاحتلال ، يخشى قصر الدوبارة أن يستيقظ كى لا يقرأ لهذا الشاب الذى دعا للتطرف ونعى على الاعتداليين استخذاءهم وعقلهم الكسيح . لم يرق أزكوى مرآقى مصطفى كامل لاسباب لا تشينه ، ولكنه كان سوط عذاب على الاحتلال فى اقليمه ، وان تركها اليوم لتلاميذه ، ولم تعد « رائد غرب أفريقيا » تلك الصحيفة التى كان يتطلع اليها المتعلمون فى الاقليم . أضحت صحيفة عصرية يعنيها الخبر الزاهى والمقال الثائر ، وتعنيها المقالة القصيرة تهدف لفكرة واضحة يقولها الكاتب فى كلمات معدودة تثير التفكير والتأمل، يحذقها اليوم فى الصحافة العربية كثيرون

وكثرت الصحف بعد « رائد غرب افريقيا » وكان

من نتائج هذا أن تيسرت اللغة ، فالكاتب لم يعد يكتب لصفوة من الناس مختارة ، واتسعت آفاق المواضيع التي يعالجها الكتاب . وكان طبيعيـــا لهذا أن يتجه الشباب المعاصر الى المقالة الادبية الانيقة يعبر بها عن عاطفة بذاتها يحلل بها احساســا بعينه أو يصف بها شيئا وقع ، وعلى الذين يريدون مدخلا للعقل الافريقى اليوم والعاطفة الافريقيـــة المعاصرة ، أن يقضوا بعض الوقت مع هـــذه المختارات التى تملأ مكتبات الغرب اليوم . شرعت هذه المختارات صحيفة « درم » التى تصدر فى جوهانسبرج قدى فى عين فيرفود ومدرسته. طلبت الى واحدة من هؤلاء اللواتى وهبن شطرا طيبا من حياتهن الفكرية لقضايا القارة من كل لون ، وما أكثر الوانها اليوم ، أن تجمع شيئا مما يكتب الافريقيـــون ، فطافت أرجاء القارة من زنجبار لقـــابون ، ومن كيب تاون لقندار وجمعت طائفة صالحة ممـــا يكتب النـــاس فى هذه الاقاليم ، وقدمت لها بمقدمة عاطفة حانيـــة ونشرتها عام ١٩٥٨ بعنوان مضيء لطيف هو « الضيـــاء والظلام » . وتوالت المختـــارات بعد بقى روثر فورد ، فأصدرت مجلة القرن العشرين بعـــد عام واحد عددا خاصا بأفريقيا ، دعت له شـــلة صـــغيرة من كتاب افريقيا ، وشلة أخرى من الاوربيين العاملين فى حقـــل الشئون الافريقية ، كتبوا مقالات فى الادب والسياسة والاجتماع ، ما لبثت أن صارت مرجعا للباحثين اليوم ، وفى عام ١٩٦١ ، هيأ الله لهذا اللون من الادب الافريقى زنجيا من الولايات المتحدة اقتعد مكانه منذ زمن بعيد بين شعراء الزنوج خاصة ، وشعراء العالم وروائييه عامة ، فأصدر خير مجموعة فى تقديرنا بعنوان «خزانة

افريقية » ولم يكن بدعا أن يقـــدم لانقســتون هيوز ، مجموعته هذه من المقالات والقصص والاساطير والشعر المصطفى ، ببحث قصــير يلقي على الفكر الافــريقى اضواء باحثة تدفع قارئها للتطلع الى مزيد من هــذا الادب الشيق . كتب لهذه الخزانة الافريقية ايموس تتوالا الذى لم يتلق تعليما يذكر فقد ولد فى غابة من غابات نيجريا ، وجاء المدينة ليعمل صبيــا لصائغ ، وكتب لها ابيوس نــكول ، الطبيب الذى اهل نفسه فى كمبردج ويعمل فى بلاده سيراليون الان ، اما مــاتى ماركوى فما زال طالبا اليوم يعمل لشهادته فى المملكة المتحدة ، وقد عدا الثلاثين الان ، لان غانا لــم تيســر له امله فى التعليم الا منذ قريب حين استقلت وتلفتت تبحث عن المواهب ، ومن جنوب افريقيــا كتب لهذه الخزانة حمال يعمل فى ميناء اقليم الكاب ، وليس هذا بالطبع مقاله الاول ، وكتب لها الســيــد بنبنقر بلاى الذى كان حين ارسل مقاله للخزانة عضوا فى برلمـــان غانا ، كما كان سنغور فى فرنسا يمثل الســـنغال فى الجمعية الوطنية هناك : مجموعة من الحرف والاعمار والبلاد والخبرات يجمع بينها انها مواهب حقيقيــة ، عرفت سر الحرف واتجهت اليه واستعانت به لتعبر عن هذه الصدامات الضـــخمة التى تعيشها النفوس الحســاسة فى القارة ، التى صعب معها هذه الايام أن تتابع أنبــاءها ، والتغييرات التى تطرأ على كل شيء ، حتى على أسماء أقطارها ، على نحو ينبغى عليــك أن تغير خارطة القارة على مكتبك فى أوقات غير متباعدة . .

تتناول هذه المقالات التى أشير اليها مواضيع متفرقة تتصل بالحياة فى جوانبها العدة ، فحزقيل مفاليل ـ

وهو في تقديرنا سيد المقالة الافريقية ، يكتب عن « أزمة المثقف الافريقي » وابرهامز يكتب عن «السود» وهي من امتع ما كتب في أدب الرحلات على أيامنا الحاضرة : رجع للقارة وقد أوفدته واحدة من كبريات الصحف فلقي رفاق الصبا والكفاح الاول ، وقد تقدم بهم كلهم العمر . لقيهم يكافحون على نحو جديد : نكروما يعمل للبناء وقد انتهى من التقويض — تقويض الاستعمار ، وكنياتا يكافح على صعد عدة أشقها الصعيد الذاتي • لقيه ابراهامز مشتتا ، بين بعض نفسه تجنح لاوربا ، كتبها ، مسارحها ، فتياتها ، وجدانياتها وكل الذى ألف هناك وأحب سبعة عشر عاما من حياته الفتية ، وبين قيادة هذا الشتيت الذى لا يفهم منه الا قليلا ويحتاج لكثير ، وشبيه بهذه الصورة الحزينة ، صورة رسمها لنفسه ابيوس بيكول في مقاله « العودة لغرب افريقيا » عاد من كمبردج بعد أن قضى بها « اعوام سعيدة » ليقيم في سراليون يعمل بين أهله ، ويحيا « موزعا الوجود بين غرب أوربا وافريقيا » الوجود الروحي ، والوجود الجسدي ، شأنه شأن غيره من شباب قبيل الحرب . ولم يكن ممكنا أن تخلو هذه المختارات من مقال سياسي ، كتبه توم بويا عن « الحرية الافريقية » وهو واحد من هذه الارواح النادرة التي تستطيع العيش على كل صعيد. تكتب هذه المقالة التي تحلل نزوع افريقيا الحديثة للاستقلال ، تحليلا ذكيا عارفا يستحق مكانه في هذه المختارات ، وتستطيع التحدث للجماهير العمالية في مساكنها التعسة حول نيروبي وممباسا ، يثيرها ان أراد ويسوقها سوقا الى الهدوء ان رغب ، يعينه على هذه الاخيرة وجهه الوسيم الضاحي ، وصوته الودود

الماكر ، وسواحليته التى يتقنها ـ فيما فهمت ـ أدق الاتقان . وفى واحدة من هذه المختارات مقال يصف فيه كاتبه اللقاء بين قادة القارة السوداء فى المؤتمر الاول للشعوب الافريقية عام ١٩٥٨ فى اكرا ، وصف لا يتصل بالسياسة اتصاله بهذا الحس المرهف الرنان يربط بين المكافحين فى كل بقعة فى القارة . يقول الكاتب الحساس يصف الاصرة بين المكافحين عن أوطانهم وعن القارة فيقول : « الساعة العاشرة يصل رئيس الوزراء دكتور نكروما برفقة وزرائه . يقف توم بويا ، الشاب دافق الدم حاره ، أفعل الرجال فى كينيا واقدرهم الآن ، رئيس المؤتمر ، يقدم رئيس الوزراء ، ويقول شيئا عن مكان المؤتمر فى يقظة القارة . يلمح دكتور نكروما سفير تونس فى لندن جالسا بجانبى . ما أعجب هذه الكهرباء تفتر عنها شفتاه وهو يلوح بيده أهلا يرحب بالسفير التونسي . ويقوده توم نحو المنصة ، ذراعه حوله يلفه بها ، يهمس شيئا فى أذنه . لايسعني وأنا أرى هذا الذى أراه الا أن أقول لنفسى هذه افريقيا التى تفهم التقاليد فهما يختلف عن فهم الاوربى لها . . . » وهكذا . . ان لم تكن هذه كلمات رابطة بين النفوس واثقة ما بينها ، فأين ؟

القصة الأفريقية

يكتب سنفور مرة عن فن الحكاية فى افريقيا فقال : « الحكاية التقليدية عند الافريقى ، نسيج موشى من حوادث كل يوم ، وليست المسألة هنا مسألة نوادر تحكي أو قصص ، من صميم الحياة تستحيل الحوادث هنا صورا ، يتخيلها القصاص ، يسعى لنقلها للسامع ، وتتخذ هذه الصور من أجل هذا ، قيمة النموذج أو التمثال ، وتشير اشارة أبعد من تلكم اللحظة التى حكيت فيها الحكاية . لن تجد واحدا من اشخاص الحكاية فردا لقاء مجموعة بالمعنى الذى تعرفه أوربا . يمثل كل واحد من هذه الاشخاص نموذجا ندركه أو مثالا نتصوره ، مثله فى هذا مثل النقاب الافريقى » . وأرجو أن تعيد قراءة هذا الذى يقوله الشاعر الرئيس ، فهو واحد من الذين يختارون كلماتهم فى دقة دقيقة ، لأنه لايقول الا دقيقا طريفا من الاشياء ، ولن يشق عليك أن تدرك بداهة ، الى أن الحكاية التى يكتب عنها لا تختلف عن الذى ألفناه فى حكايات الاقدمين عندنا والاساطير . الحكاية هنا كما هى هناك صور وأخيلة ، ليست من « صميم الحياة » فى كل حالة . الاشخاص نماذج للعفة والخسة ، والاقدام والجزع ، وما اتصل بهذه الاخلاقيات بسبب . لكن القارىء

العربى لا يعرف كثيرين فى أيامنا هذه يكتبون الحكاية على هذا النحو ، لم يعد أحد يكتب على نمط عيسى بن هشام وعلم الدين، فقد انتهت مقتضيات ذلك الاسلوب عندنا لحد بعيد وقضت القصة بمفهومها الاوربى بعد دانتي وشوسر وغيرهما على هـذا النموذج . ولـكن افريقيا تلجأ من حين لآخر لهـذا النمط ، توضح به فكرة لا سبيل الى توضيحها للعامة كما فعـل جومو كنياتا أول عهده بالجماهير فى حكايته التى ستقرأ بعـد قليل ، وكما يفعل الآن ايموس تتوالا ، لا ليوضح فكرة ، بل ليلقى أضواء كاشفة على الخيال الافريقى وارتبـاطه بالحياة السياسية والاقتصادية ، وليسلى القارىء ويمتعه متعة لا تقتضيه أعمال فكر ..

لن أقف اطول من هـذا عنـد فن الحكاية عنـد الافريقيين فهو لا يختلف فى جـذوره ودوافعه وروحه عن هذا الفن عند غير الافريقيين الا بالقدر الذى تفرضه البيئة على الانسـان فى مختلف اقطـاره . نريد الآن لنمضى قدما فى الحديث عن القصة بمفهومها المعاصر ، ولنقل توا انها اتخذت فى عشر أعوام أو أقل ، مكانة فى الادب العالمى ــ وأقولها وانا أعنى ما أقول ــ المعاصر ، لا من أجل هذا الحرص الذى تراه فى كل مكان اليوم للتعرف على القارة ، وان كان فى الأمر قليل من هذا ، بل لأنه فن جدير بانتباه العالم فى بنائه وفحواه ، لأنه استطاع فى هذه الفترة القصيرة أن يشرح افريقيا للذين يبحثون ويعيشون للبحث ، كما لم تستطع اداة اخرى من أدوات التعبير عن الذات . قال ناقد بريطانى يصف قصة من هذه القصص التى وجدت طريقها لعديد من لغات العالم : « تعطينا صورة عن افريقيا الزنجية ،

ما استطاع رسمها كل المامبو جامبو الذى يسود به السادة البيض صفحات الورق ، كلما عادوا من رحلة للصيد وجمع العاديات » . ولن انصفك أن لم أبين لك ان هذا التعليق على قصة منقوبيتى ، ماكتبته صحيفة عادية . كتبه الملحق الادبى للتايمز ، ومضى يقول عن كاتب « بعثة الى كالا » : « هذه موهبة أصيلة » ، ولا شك عندى فى أنه ما أبعد أن صاحب « بعثة الى كالا » و « الملك عزرا » موهبة من تلك المواهب التي احتلت مكانها اليوم من كوناكرى ، وايوندا ، وفريتون ، ولاقوس ..

وأحب قبل ان امضى فى هذا الحديث لغايته أن أؤكد لك تأكيدا أن الذيوع الذى تلقاه هذه القصص ، لا يتصل من قريب أو بعيد بالمصانعة التي يلقاها الصغار من الكبار ليشبوا عن الطوق ، من شواهد هذا ان « الافريقى » اول قصة طويلة كتبها وليم كتن ، لقيت طريقها الى دار سقنت فى الولايات المتحدة ، واحدة من هذه الدور التي تنشر الكتب ذات المكان الاسمى بأغلفة من الورق تعين الناس — كل الناس — على شرائها ، وتقويمى لهذه الرواية هو انها من أضعف ما كتبه القصاصون الذين أعرف ، لكن قارىء تلك الدار راى فيها غير الذى رأيت ، وقومها بمقياس غير الذى استعمل ، ويقينى انه اخذ بالصور السياسية التى أتقن رسمها كتن ، وبالصراع الذى اتقن تصويره المؤلف بين القوى المحافظة فى سيراليون والقوى الناظرة أمام . حقا انها صورة طريفة ، ولكنى حسبتها ساذجة ، لاتصل الى اعماق المصاعب التى لقيها محررو افريقيا ، حين شرعوا فى أعقاب الحرب فى تاليف

الاحزاب السياسية والنقابات ، وما الى هــذين من تجمعات ، قامت وسط علائق بشرية معقدة مؤلمة ، ما اتى حتى على بعضهـــا المؤلف ، ولعله كان يكتب من سماع لا خبر • اقول هذا لأن الشطر الذى يتحدث فيه عن حيـاته العلمية فى الخارج وعلائقه البشرية هناك ، شطر عميق حســـاس ، وان لم يكن القسم الاوفر فى القصة ، شطر يبدو لنا انه خبره واختزن بصـــوره فى وجدانه ، الى اليوم الذى كتب ..

وللرواية الحديثة فى افريقيا « قصة وليم كتن نشرت عام ١٩٦٠ فقط » جذور واصول تعود لعهد كان قد صفى عليه الزمان ، الى أن اتت هذه الفئة القليلة من الروائيين ، ودعت النقاد الى التساؤل عن سر هــذه العبقرية فى القصة . اتى هؤلاء الشباب فذكر النقــاد اول افريقى ، فيما نعرف الآن ، عالج القصـــــة فى اسلوبها وبنائها الحديث والطريف فى هذا الرائد توماس موفولو أن بينــــه وبين رفاعة الطهطاوى شبه ، اقرأ أن تيسر لك ذلك « رحلة الشرق » التى كتبها موفولو عام ١٩٠٦ فى أعقاب رحلة طويلة خارج جنـــوب أفريقيـــا ، وقارن بينهـــا وبين « تخليص الابريز » الذى كتبه الطهطاوى وقد أثارت الشجون فى نفسه « باريس » ستجد هذه المشـــابة واضـــحة • وفى عام ١٩٤٩ كتب موفولو قصــــة اشـــتهرت الآن وأذيعت حتى دخلت الفصول المدرسية ، قصة تصور حياة المحارب الزولوى شاكا ، نشرت على التوالى فى أعوام ١٩٥٢ و ١٩٥٦ و ١٩٥٧ و ١٩٥٨ و ١٩٦٠ ، ويغلب على ظنى ان لهذا الرواج سببا آخر غير قيمة القصة الفنية ، وهى قيمة ما فى ذلك شك • لقيت الصـــور التى رســـمها موفولو

صدى فى نفوس المبشرين . كان شاكا وثنيا من عبدة الاصنام والاشجار ومظاهر الطبيعة ، وقام فى وهم موفولو الذى تثقف على يد المبشرين منذ كان صبيا وعمل معهم فى مطابعهم شبابه كله الاول ، ان شاكا قتل وسبى واستحل الحريم ، ما وزعه وازع من دين ، ولو تعمد في الكنائس وتنصر ، ما فعل . لم ير فى هذا المحارب فضيلة ، فطرب المبشرون كمن يقول : « وشهد شاهد من أهله » وأذاعوا الرواية على النحو الذى رأيت ، ولكن هذا لا ينقص من قدرها الفنى ، تحتل فى القصة الافريقية مكانة ، جوزف اندروز التى يعدها الكثيرون بدء القصة الانجليزية . على ان شاكا ـ سيد الزولو ما عدم من يرى فيه غير هذا الذبح والقتل الذى ركز عليه موفولو . أضحى اليوم اسطورة تختلط الحقيقة فيها بالخيال ، لأن افريقيا الناهضة ارادت له ذلك ، وهى تبحث كالمحموم عن أصول لها وأرحام فى الماضي الذى انكره الناس عليها ، ولك ان أردت الشاهد أن تقرأ رائعة سنفور الشعرية عن شاكا ، نابليون افريقيا الذى أبى الفزاة من البوير ، ووقع صريعا وهو يكافح عن ترابه . حقائق غابت عن موفولو ، وهو فى قبضة المثل المسيحية التى تأثر بها فى صباه ، وما رأى ماذا فعل بها الناس ، وهم يصطرعون للحياة ..

تلك كانت اللبنة الاولى فى بناء صرح اتخذ سمته حين نزح الشباب الافريقي لأوربا وبريطانيا ، ولم يكن معدى عن أن يتخذوا وسائل التعبير من العواصم التى خفوا اليها للعلم حينا كما قلنا والعمل حينا آخر وفرارا أحيانا أخرى . كان بيتر ابراهامز شيخ الروائيين الافريقيين ، واحدا من هؤلاء . دخل بريطانيا على

سفينة يعمل فحاما عليها ، وعمـــل بادىء الامر مع صـــديقه كنياتا ونكروما يجمع الشبـــاب ضد النفوذ الاجنبى ، واتجه من بعد للـكتابة ، وقد عرف فى نفسه العجز عن مصارعة المتاعب الســـياسية ، واكتشف موهبة قصصية نادرة بعد ان كتب « ولد فى المنجم » يصف حال النازحين من كيب تاون فى مناجم جوهانسبرج وتوالت بعدها الروايات « الاحتلال الوحشى » قصـة اللقاء الدموى بين الماتابيل والبوير ، و «طريق الرعد» القصـــة التى اوثرها على كل ما كتب اليوم ، قصـة الفتاة الاوربية التى دفعت حيـــاتها ثمنا لحبها الفتى الزنجى ، قال ناقد يصف اسلوبها القصصى انها كتبت « بأسلوب الملائكة » وما أسرف فيما نعد وان كنــــا لـم نقرأ للملائكة شيئا بعد .. ابراهامز روائى جدير برائده موفولو ، ولـكن افريقيا لم تكن لتقف عند حد ، وقد راد الطريق بعض ابنائها أول الامر وكان لباريس – مرة اخرى – يد لا تنكسر على النازحين اليهـــا والمثقفين ثقافتها الملهمة . احتوت هذا الشباب احتواء ، واعطته الـكثير من مواهبها فى التعبـير عن ادق خلجات بنى الانسان ، ولن ينقضى عجبى من ظاهرة أشرت اليها من قبل .. كلما أقبلت هذه المدينة الساحرة على هـــــذا الشـــباب النابغ ، كلما التفت هؤلاء لتراثهم البعيـــد افريقيا . ما بخلت عليهم بشىء من فنونها الـكثيرة ، ولا أوصدت فى وجوههم نافذة من نوافذها العدة ، ولكن هذا الشباب لم ينصرف اليها كما حسبت هى وأرادت . رأى أفريقيـــا خلال باريس المعلمـــة الســـخية وكانت عينا جديدة تلك التى رات القارة فى ضوء الذى حذقته من علوم فرنسا ومهارتها الذكية فى الحقل ..

كثيرون هم الذين راوا القارة بعين جديدة ، لكنى ارجو أن تهب ساعة من وقتك لهذه القصة التى قرأتها انا فى صمت مرة وقرأتها بصوت عال مرة ثانية أتملى حسن بيانها الرائع « طفولة زنجى » تثير فيك الرضى الذى أثارته « الايام » على بعد ما بين القصتين والكاتبين ، تجمعهما روعة العمل الفنى المخلص . كتب جيمز كيركب الشاعر الانجليزى العلم يقدم « طفولة زنجى » فقال : « انها قصة واضحة ، دافئة ، تاخذ بيدك وعقلك وقلبك توا لجوهر الامر ، تجمع بين الوضوح البهى الذى تميز الفرنسية فكرا ولغة ، والحرارة التى لايستطيعها الا القلب الافريقى » . ولا عجب أن تقذف هذه القصة بكامرا لى – الى المكانة الاولى بين روائيى افريقيا التى تكتب بالفرنسية ، مكانةلاتنافسها الا مكانة شنوا أشنب الذى يكتب الآن بالانجليزية فى نيجيريا . نفذت نسخ قصتيه الآن ، ولم تنشر أولاهما الا عام ١٩٥٨ ، وأعيد طبعهما عام ١٩٦٢ ، قال انقس ولسن : وهو من تعرف دوره فى الرواية الانجليزية المعاصرة : « أنا أتطلع لقراءة قصته القادمة » قالها بعد أن قرأ « وتداعت الاشياء » وليتنى عرفت الذى قال حين صدرت قصة شنوا اشيب الاخيرة . « واستحال أن نطمئن » ولم تكن الا تتمة لسابقتها فالاشخاص هم هم الا الاقلون ، وهم يحيون الحياة الاوربية التى قاومها الآباء والاخوان ، حين اتت كالمحراث تقلب الارض وجها لقفا ، وتحيل الحياة الوادعة العاجزة الى أخرى ذات اقتدار وقلق ورفاه وضيق ..

وليست هذه هى الميزة التى تميز القصة الافريقية ،

فكل قصة تستحق اسمها تعنى بشىء أو آخر يشغل على الكاتب ذهنه وقلبه : كنراد عنـــــاه البحر فكتب عنه وعن علائق البشر حين يحيون غليـه أو قربه ، والبحر هو البطل فى أكثر من حالة ، ودستويوفسكى عنته النفس الانسانية فى آلامها فكتب عن نفس المتدين، والمجرم ، والمقامر ، والقاتل . كل قصة تعنى بشىء أو آخر ، ولـكن القصـــة الافريقية المعاصرة تأسرك على صعيد آخر ، صعيد جرس الـكلمة . ما ادرى سر هذا ، ولـكنى ما قرات لليوم قصة أسلوبها الـكتابى لا يسقك من فقرة لأخرى وصفحة لأختها سوقا تلذه وتمتع له ، يخيل لك بعض الاحايين ان الـكلمة فى يد هذا الشاب أطوع منها فى يد أهلها ، ومن يدرى لعل مرد هذا الى اللذة التى يجدها الداخل على مهل منطقة ما عرفها من قبل ، فالفرنســية أو الانجليـــزية لدى الافريقى دنيا جديدة يدخلهـــا على استحياء وجزع ، ويكتشف مع الوقت قدراتها على التعبير عن كل الذى يثور فى نفســــه . وليس من عزمى هنا أن اعرب لك شيئا من هذه اللغة الحاذقة التى يكتب بهـــا القصاصون الافريقيــــون ، فأمتع ما يكتبون هو أشـــق ما يمكن تعريبه ، يكاد ان يكون احدهم شاعرا حين يصـــف مناظر القرى ، وصراع الصبيان فى ضــوء القمر ، وحفـــلات الختــــان ، وحرص المبشرين ، وهـــدوء الشيوخ ، وعفرتة الشباب ، وكل الذى يعين القصـــة لتسير للأمام ، تؤكد نقطتها ، دون أن تمل القـــارىء أو تضنيه ..

حكاية من أفريقيا

جوموكينياتا يحكي
عن : سادة الغابة

قال : كان ياما كان فى حديث الزمان ، رجل فاضل ، وفيل كبير يعيشان فى غابة ، ونشأت بينهما صداقة . وفى يوم من الايام ، فتحت السماء أبوابها ، فنزل المطر وجرت المياه فى كل مكان ، وقلعت الشجر، ورمت الاكواخ . وخاف الفيل من الشلالات الجارية ، والاشجار الواقعة ، وجرى نحو صديقه فى طرف الغابة ، وقال له : « يا اخى العزيز انقذنى . انت هنا فى طرف الغابة ، وكوخك على تل لا تاتيه المياه خلنى اضع خرطومي فى كوخك الى أن تقفل أبواب السماء » كان الفيل مبلولا يرجف من البرد ، وعطف على حاله الرجل ، فقال له : « انت شايف كوخي . انه صغير ، فادخل خرطومك ، ولكن برفق ، بالتدريج » فقال الفيل : « شكرا يا صديقى العزيز . أنا لن أنسى معروفك . وان شاء الله ارد لك الجميل فى يوم من الايام » . ولكن اسمعوا الذى حصل ، واعجبوا يا ناس ..

اطمأن خرطوم الفيل فى الكوخ ، فزحف برأسه ، ودخل الكوخ ، واتحكر ، فقال الرجل : « حيلك ، ماذا تعمل ؟ » ولكن الفيل لم يقل شيئا ، ودفعه للخارج ، ورماه تحت المطر ، وقال له من الداخل :

« ياصديقى العزيز ، انت تعرف ان جلدى رقيق وان جسمى ناعم ، انا لا احتمل المطر ، اما انت فتقدر على المطر . لن يغير الماء جلدك . اقعد حتى ينتهى المطر » نصرخ الرجل واجتمعت كل حيوانات الغابة ، ووقفت تسمع الجدال بين الصديقين ، وجاء الاسد من بعيد يقول ويزأر فى المجتمعين : « ما هذا ؟ الا تعرفون انى لا اسمح لاحد ان يعكر السلام فى المملكة ؟ » وخاف كل واحد وسكت الا الفيل قال : فى صوت بطىء مثل اصوات الكبراء يمضغ الكلمات : « سيدى » وسكت مدة ثم تحدث كلمة كلمة مثل الكبراء تماما : « لا يهمك . الأمن فى المملكة على ما يرام . كنت احاور صديقى هذا فى امر الكوخ الذى ترانى اسكنه» فقال الاسد : « لقد سمعت كلام السيد الفيل ، وهو من وزراء الغابة كما تعرفون ، وقررت تكوين لجنة من الكبراء والوزراء فى الغابة . ستدرس اللجنة هذا الموضوع ، وتعرض نتيجة درسها علينا » . وسكت الجميع ، وتلفت الملك يمينا وشمالا ثم قال للرجل : « انا اهنئك على ذكائك . ان صداقتك لشعبى تسرنى جدا : لاسيما صداقتك مع زميلى السيد الفيل ، وزير الدولة الشريف . ثم اطمئن ان كوخك لم يضع ، واللجنة الامبراطورية ستسمع كلامك كله ، وانا واثق ان قرارنا سيرضيك » ولوح الفيل بخرطومه ينهى الكلام ، والحق بين على كل حال ..

وشرع الفيل فى تكوين اللجنة عملا بأوامر الملك وانتهى الى تكوينها كما يلى :

١ ـ السيد الخرتيت وحيد القرن عضوا ..
٢ ـ السيد الجاموس فرس البحر عضوا ..
٣ ـ السيد التمساح عضوا ..

٤ ـ السيد المحترم الثعلب رئيسا للجنة ..
٥ ـ السيد الفهد ـ سكرتيرا للجنة

وبلغ الرجل الخبر فاحتج على هذه اللجنة . كلها من كبار القوم زملاء الفيل ، وليس فيها واحد من أصدقائه هو . فقال له القوم : « يا رجل . لا تخف على حقوقك . ان هؤلاء الكبراء من أنظف القوم يدا ، عرفوا بالعدل والنزاهة طول حياتهم . وزيادة على هذا فان الله اختارهم واصطفاهم ، ليدافعوا عن حقوق الضعفاء الذين ما منحهم الله بسطة فى الجسم وقوة فى المخالب والانياب ، انهم يا رجل رسل الله رب العالمين، ولا يمكن لهم أن يظلموا ضعيفا ، وخاصة الملك هو الذى يقرر الامر . لا تتكلم كثيرا . ثم اسمع : من تريد ان يكون فى اللجنة من أهلك ؟ كلهم قوم دون هؤلاء فى العلم والخبرة . انهم قوم غير متعلمين ، والعمل فى اللجنة صعب ، يتطلب معرفة بقانون الغابة . اترك الامر فى يد العارفين والقادرين ، ونم هادىء البال » وخاف الرجل وسكت ولم يعرف ماذا يفعل ..

ثم جلست اللجنة تسمع الاقوال ، ودعت السيد الفيل ، ودخل سيادته يختال بانيابه البيض ، وقد دهنتها له زوجته بدهان لامع . سلم على الجلسة ، وقال فى هدوء الكبراء ، وتكلم كلمة ، كلمة مثل الكبراء : « يا سادة الغابة . القصة بسيطة ، ولا داعى لاضاعة وقتكم فانتم تعرفون كل التفاصيل ، وتعرفون انى الحامى الاكبر لاصدقائى المساكين . هذا الرجل صديقى ولكنه لم يفهم موقفى كما يجب . خفت على كوخه من الرياح ودخلت فيه لاحميه واحمى كوخه ، والمكان الذى جلست فيه كان خاليا غير مستعمل ، ومن واجبى أن أجعل ذلك المكان الخالى

مفيــدا ومنتجا . ان صــديقى لا يعرف التنميــة الاقتصــادية ، وهو رجل متخلــف ، ولا بد لى من مساعدته ، ولــكنه اساء الفهم ، ولو كان احـــدكم فى مكانى لما فعل الا مثلما فعلت انا . . . » تاثرت اللجنة بهذا الــكلام الجميــل ، وهز كل واحد رأســه من الاعجاب ، ولــكنهم دعوا السادة الآخرين ليســمعوا رايهم فى القصة . .

دخل السيد الضبع وقال : ان كلام السيد الفيــل وزير الدولة فى الغابة ، كلام حق وفيه حكمة بالغة . وجاءت الحيوانات الاخرى وقالت مثل هــذا الكلام ، فنادت اللجنة الرجل ، وسالته رايه فى الموضوع ؟ . . فقال : « أيها السادة . . . » ولــكن رئيس اللجنة قاطعه قائلا : « أيها الرجل ، لا تخرج عن الموضوع ، تكلم فى الجوهر . لقد سمعنا القضية من قوم عديدين كما رأيت ، وكلهم ابن ناس وشريف . كل الذى نريد ان نعرفه منك هو ان كان الفراغ الذى احتله السيــد الفيل يحتاج للتطوير الاقتصادى أم لا . هذه واحدة ، والثانية أن تخبرنا ان كان الفراغ يسكنه احـــد قبل مجىء السيد الفيــل . جاوب بنعم ، أو لا . . . » فأجاب الرجل قائلا : « لا . . ولــكن . . » فقاطعه الرئيس قائلا : « لا . . خلاص . . » ثم أعلن أن اللجنة سمعت كلام الجانبين فى القصة وانها ستتداول فيما بينها الآن وتبت فى الامر بكل ذمة وعفة . رفعت الجلسة

وذهبت اللجنة لبيت السيد الفيل ، واكلت هناك اكلة طيبة و « اتدشت » كلها ، ووقف الرئيس يعلن القرار : « أيها الرجل ، ان اللجنة اقتنعت بأن السيد الفيــل قام بكل واجباته المقدســة نحوك ، وبما أن مصلحتك الاقتصادية تقتضى استعمال الفراغ الموجود

فى الـكوخ ، وبما انك غير راق وغير متعلم الآن ، ولا تعرف أن تستفيد اقتصاديا من الفراغ ، فقد قررنا أن نعمل صلحا بينك وبين السيد الفيل ، على الا يضر هذا الصلح بمصلحة أحد تحت حمايتنـــا من اليوم . لا تخف شيئا بعد اليوم . وخليك جـــدع » . وكان الرجل يسمع هـــذا الـكلام ، وينظر الى الانيـــاب والمخالب . وكانت تتحرك أمام عينيـــه وتلمع ، وخرج ساكتا فما فى الامر حيلة . ولـكن المحنة ظلت وراءه . بنى لنفسه كوخا آخر ولـكن الخرتيت راى الـكوخ وسر من موقعه وبنـــائه ، جاء بقرنه السكين واخرج الرجـل ثم جلس مكانه ، واشتكى للجنة الامبراطورية لأنها قالت له انها ستحميـــه وتدافع عنه . ثم قامت اللجنة وقعدت ، وقررت أن يسكن الـكوخ زميـــلهم الخرتيت ، وأن يبنى الرجل كوخا آخر . تماما كما أمروا من قبل . فبنى الرجل كوخا ثالثا ، ونزل فيها السيد الفهد ، وقررت اللجنة نفس القرار .. وهكذا راح يبنى الرجل كل فترة كوخا ويحتله واحـــد من سادة الغابة ، واللجنة الامبراطورية تقرر ما قررته من قبل . وهكذا . . . حتى سكن كل السادة الحيوانات فى أكواخ بناها الرجل بذراعه . وجلس يوما يفكر فى حاله ، فقال فى نفســـه : « لابد من مخرج » ولـكن ما هو المخرج ؟ .. وفجأة تذكر ان جده كان قد قال له : « يابنى ، لا شىء يمشى على الارض يستحيـــل اصطياده » . معنى هـــذا الـكلام ، ان الواحد منا يخدع بعض الوقت ، ولـكنه لا يخدع للأبد ، الا اذا كان « بقجة » وفى الصباح شمر عن ساعده وبنى كوخا جميلا قوى البناء اكبر من اى كوخ بناه ، وجلس جنبه ينتظر . لقـد تكسرت اكواخ السـادة الحيوانات من

حوله ، واهتزت قواعدها من الاهمـــال ، وها هو ذا كوخه الجميل القوي ، وفى هذه اللحظة جاء الســيــد الخرتيت وجرى ريقه لما رأى الـكوخ الجديد ، ونظر الى الرجل فى احتقار ودخل الـكوخ الجديد ليمتلـكه كما امتلك الـكوخ الذى يسكنه الآن . ولـكن اسمع وانظر . . . هذه مفاجاة غريبة .. لقد وصل السيد الفيل قبله ودخل الكوخ ورقد واحتل له مكانا وهات يا جدال وكلام بين الســـيدين الـكبيرين . كل منهما يريد الـكوخ لنفسه .. وسمع الســـادة الحيوانات الآخرون بالخبر وجاءوا واحدا وراء الآخر .. الفهـــد يطل من النافذة ، والضبع فوق السقف ، والاســـد يدخل من الباب ، فهو « اجمص » من أن « يدبى » من النوافذ والقدود ، والتمساح متمدد فوق السقف يتشـــمس ، والثعلب يقفز هنا وهناك ، والصيـــاح والصراخ والعويل فى كل جانب ، والانيـــاب طالعة ، والمخالب تدخل وتمرق . وسالت الـــدماء المقدسة لأن المخالب والاضراس تعبت من الجـــدال ولجأت للعض والقرص والرفس والطعن ، وهنا جاءت فرصة الرجل

بينما السـادة الحيوانات منهمكون فى الضرب والركل والعض والقرص والخربشة أشعل النـــار فى الـكوخ ، فهوى الجميع رمادا وهوى بهم الكوخ ، وامتدت السنة النار للغابة لا تبقى سيدا ولا بذر شجرة . وجاء الماء والرجل ينظر للسماء حمراء من اللهب ، ويشم رائحة لحم السـادة الحيوانات . ثم استلقى على ظهره ينظر للنجوم خلال اللهب وهو يقول : « السلام غالى لـكن ثمنه فيه » ونام فى تبات ونبات حتى الصباح ، لا تقلق نومه أحلام التنمية الاقتصادية ..

الشعر فى أفريقيا

تنشر الصحف فى العواصم الافريقيــــة وفى باريس شعرا يتميز بافريقيته ، وعلى الذين يرتابون فى وجود شخصية افريقية ، أن يقرءوا بعض هذا الشعر ، فهو تعبير عن روح افريقيا الحديثة ، وعن تطلعها الجديد ، وعن الذى ترضاه والذى تاباه ، ولا على القارة ان لم تنجب حتى اليوم شـــوقيها ، فهى كما تعرف بابل الجديدة ، يكتب أهلها بلغات افريقية عديدة ، وثـــلاث لغات أوربيـــة هى : الفرنسيـــة ، والانجليـــزية ، والبرتغالية ، وسيظـــل النوابغ من شعرائهم يخاطبون اقوالهم المفردة ، الى أن يتـــاح لهم ما أتيح لشـــوقى ونازك من صيرورة ، لانهما كتبا بلغـــة تشـــد أوطان العرب كلهـــا ، أو يتاح لهم ما أتيـــح لأودن ودلان ، لانهما كتبا بلغة تشد طرفى المحيط الاطلسى ، وتنتشر فى بلاد رابطة الشعوب البريطانية ، وما هى بريطانية الا فى هذا اللسان الذى به تنطق . ومن شـــواهد هـــذا الذى نقول ان الشعراء الذين يكتبون بالفرنسية مثلا ـ سنغور وديوب ـ يكاد بعضـــهم أن يجد طريقـــه للمختارات العالمية ، بينما الذين يكتبون بلغات الاقاليم لا تعرفهم الا الاقلية من المهتمين بالشـــعر الافريقى .

وقصة اللغة فى القارة معضلة ما فرغ لها كثيرون بعد..

وشىء آخر لم يتح للشـــعر الافـــريقى أن ينتشر ويزدهر ، هو انه لم يجد طريقـــه للنشر الا على يد الصحف التى ذكرتها وكلها حديثة العهد ، فشـــعر نيجيريا مثلا وهى البلد التى عرفت بعد ذكر وعز مكان فى القارة ، لم ير النور مكتوبا الا عام ١٩٤٩ ! ! جاءها هنرى سنونزى محرر « الشئون الافريقية » يبحث عن آثارها المكتوبة والسارية على الالسن فعثر على شـــعر أثار اهتمامه ، وكان من جمائله أن عرف قراء اللغـــة الانجليزية ـ فيمن عرفوا ـ شاعر نيجيريا الرائد دنس اسادييى ، صاحب المجموعة الشـــعرية الشهيرة الآن « افريقيا تغنى » أول مجموعة نشرت فى ذلك الاقليم ، الذى عرف بعضا من أقوى الشعراء فى القارة بعد أن ظهرت « بلاك اورفيوس » صحيفة الفن الخاص التى تصدر عن دائرة الدراسات العامة فى الجامعة فى ابادان. وكذلك الحال فى الاقاليم الشرقية للقـــارة ، والاقاليم الوسطى . كان شعراؤها يكتبون بالسواحلية وهى لغة افريقية معربة فيما يقول البعض وعربية مؤفرقة فيما يقول الآخرون ، وكان صعبا أن ينشر هذا الشعر ، ولم يزل كذلك ، الا فى ترجمات قليلة لا تنصفها ، فيما يقول الذين يعرفون الاصل ..

لـــكن الحـــال لم تكن كذلك فى الاقاليم التى ثقفت ثقافة فرنسية ، عرف الجمهور الفرنسى كثيرا من شعر الزنوج فى المارتنيك وفى غرب افريقيا وملاقازى . يسرت باريس للمهاجرين من أبناء الاقاليم كل سبيل للنشر ، كما يسرت لهم ذلك المنـــاخ الفكرى الذى لا تستطيعه غير باريس ، وتتميز به .. عرف عنها الشباب المهاجر

مكان الشعر فى التعبير عن النفس الانسانية ، وليست صدفة محضة ان المدرسة الشعرية الذائعة الصيت ، كانت وليدة مدارس من الشعر عرفتها أوربا أول ما عرفتها عن باريس فى العصر الحديث . الزنجية ابنة المدرسة الرمزية فى شق ، والمدرسة التعبيرية فى شق ، أذاع خصائصها واقتدارها على التعبير عن الروح الزنجية الطامحة الحانقة برتن ، كاهن المدرسة التعبيرية ، شيخها الاول ، وليس صدفة محضة ان ليوبولد سنغور أوفر الشعراء الافريقيين صيتا ، كتب الشعر ونشره باللسان الفرنسى فى الوطن الفرنسى ، أيام كان يعمل فى التدريس هناك . على ان تفوق الزنوج الفرنسيين فى الشعر على اخوانهم فى بريطانيا لا يعنى أن هناك شيئا فى التربة الفرنسية يعين على الشعر . الله يعلم ان التربة الانجليزية لا تقل خصوبة عن أختها الفرنسية فى هذه السبيل . قلب الحقيقة هو أن فرنسا لم تلق حجابا بينها وبين ذلك الشباب المهاجر ، وما كانت انجلترا كذلك ، كانت تريدهم افريقيين يتعاونون معها في الادارة والتجارة والزراعة لتعيش هى راضية سعيدة ، وتبعد الافريقيين عن بداوتهم الاولى ، بقدر يتيح لهم أن يتعلموا ويعملوا ويكدحوا وهم فى افريقيتهم لا يبرحونها ، الا اذا اقتضت هذه النشاطات ان يتخلوا عن شيء أو آخر يعوق سيرها للأمام . .

لم يهاجر الى العاصمة البريطانية شباب ليحيا ويرتزق بين الانجليز ، وهاجر لباريس شباب ليقيم هناك ويذوب فى الحياة فيها ، لا يذكر الا من حين لحين وطنه الأم واهله هناك ، واثار النوابغ من هؤلاء حب وتقدير الطليعة الفرنسية . قرات هذه الطليعة شعر

ديوب ، واخوانه ، ورأته على ضـــوئها الثائر ، ولن يستكمل بحث عن الشعر الزنجي ان لم يذكر معارف سارتر عليه . كتب بحثا يقدم به أول منتخبات للشعر الزنجي ، يعد اليوم بدءا للدراسات الشعرية فى القارة ، ونافذة مشعة يطل الواحد منها على نوازع الشعر عند الشعراء الافريقيين ولا أعرف مقـالة لقيت من الثناء والاعجاب ما لقيته مقالة « اورفيوس الاسود » ولعل خير شاهد على هـذا هو أن الصحيفة الزاهرة التى أشرت اليها من قبل ، أخذت اسمها من هذا المقال ، ولعبت دورا مركزيا بعد هذا فى اذاعة الشعر الزنجي ، حتى أصبح اليوم جزءا متمما للتراث الشـــعرى كله فى فرنسا . .

وللقارىء العربى أن يسأل ، ولا عليه ان فعل ، كيف تأتى للافريقي أن يكتب شعرا استحق هذه العناية من كبار أهل القلم فى القارة الاوربية والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتى ؟ الثقافة الافريقية ، فيما يعرف الناس ، لم تبتدع الكتابة فى الذى ابتدعت من أشياء . لم تعرف الـكلمة مكتوبة ، كانت تنقل ما تشـــاء بين القبائل من رسائل بالطبل خلال الغاب والشجر ، كانت تكتب بالصوت لا بالحرف . كيف تأتى لثقـافة هـذا شأنها الاول أن تكتب شعرا حقيقـــا بأن يترجمه الكتاب ويردده القراء ؟ ما عرف الافريقى الشـــعر كما عرفه الاغريق والعرب وهؤلاء ممن وضعوا الشعر مكانا عليا فى وسائل التعبير عند الانسان . للقـــارىء العربى أن يسأل عن تقاليد الشعر فى القارة الافريقية ، وفى البلاد التى ساقهم اليها الناس رقيقا يفلح الارض فى المارتنيك وجزر الهند وهايتى ــ دعك من الولايات المتحدة . له

أن يسأل ولكنه يخطىء كثيرا أن انتهى الى ان الشعر بضاعة ازجاها الاوربيون اليه ، كما ازجوا السيارة والمشط . لا أقصد بهذا الى القول بأن الافريقى كان يغنى قبل أن يلتقي بالاوربي ، والشعر فى جوهره غناء ، لا اقصد هذا ، فغناء الافريقى يكاد أن يكون أول خاطر يجيء فى البال حين يذكر لك اسمه ، لكنى أريد أن تذكر شيئا مما عرفه الباحثون الآن عن « القوة السحرية للكلمة » عند الافريقى ، وأراني مغرى هنا بأن أشير لكتاب « مونتو » أى الانسان ، كتاب يعده الذين يعملون فى حقل الثقافة الافريقيـة ، خير كتاب أخرج للناس حتى الآن فى موضوعه ، وفيه فصل كامل عن سحر الكلمة عند الزنجى ..

يحدثك جان فى فصله الخامس عن مكان الكلمة عند الافريقى ويدلل لك بشواهد ما جمعت على هذا النحو من قبل، على ان الحرف سبق الخلق فى هذه الثقافة ، وينتهى الى القول بأن كل انسان يملك قدرة الاله الذى قال للنور كن فكان ، ولا يعوقه عن هذه القدرة الا « انسان » آخر ، أقدر منه على خفايا السحر فى الكلمة . يقول « انسان » للسماء اسقطى تسقط ، لا يحول دون هذا الا ان « انسانا » آخر ذى حول أطول وباع أوسع ، قال لها : ظلى حيث أنت ، تظل . « الكلمة هى القدرة والقوة » يقول شاعر ساحل العاج برناردب دارى : « أنا أبذر الحب بالحرف » . لا يمكن لها أن تنمو دون عون . البذر وحده لايكفى ، فحبة الذرة لا تخمر وحدها وتنمو ، الكلام والغناء يقدران على اعانتها ، لأن الكلمة هى التى تحيل البذرة ذرة يأكلها الناس ، وتعين الفاكهة على

النمو والبقرة على النتاج . الحرف القدرة والحرف الشعر ..

وفيم يكتب الافريقى ؟ يكتب فى كل لون من الوان الشعر يكتب فيه غيره ، فى الطبيعة ، والعلائق البشرية ، ولكن موضوعا يستأثر بوجدان الشاعر الافريقى الحديث ، هو هذا الصدام بين افريقيا الطالعة واوربا ، التى يخالها الشعراء فى طريقهم لا تدعهم . يمثل هذا شعر « البلوز » أو الشجن عند زنوج الولايات المتحدة ، ويمثله شعر فى عهدها الاول حين كان دعاته ينقمون على الحضارة الاوربية كل شىء ، كما فعل ايمى سيزار وسنغور أول الثلاثينيات ، ولعلى ألخص جوهر الامر حين أنقل لك بعض الذى كتبه سارتر فى هذا الصدد فى تقديمه المختار من شعر الزنوج ، قال يخاطب الاوربيين « ماذا كنتم تريدون للزنجى أن يفعل ، وقد أزاح التاريخ عن فمه الكمامة التى كانت تمسكه ؟ أحسبتم ان الشفاه السود ستتغنى بعوارفكم عليها ومآثركم الكثيرة ؟ وتلكم الرءوس التى طحنها آباؤنا طحنا فى التراب ، أحسبتم وقد رفعت الآن وقد نكست طويلا، أن تروا الاعجاب بكم فى أعينها ، وان تقرأوا الحب فى وجوهها ؟ لا ما فعلت هذا » ، وكان سارتر فى هذا يكتب عن معرفة لا تخيل . قرأ فى هذه المختارات التى أشرف عليها سنغور قراءة ذكية ، وخلص الى هذا الذى يقوله ، والى الآراء التى تضمنتها مقدمته . والذين قرأوا هذه المختارات من شعر الزنوج فى غرب افريقيا وملاقازى رأوا ولا شك العنف الذى يتسم به بعض هذا الشعر الثائر ، ورأوا أيضا هذا التمجيد للسواد وكل ما اتصل بالسواد ، لأن اللون كان الفرق

الملموس بين الزنجي وسائر الناس ، ما تميز أحـد عليه الا بلونه ، وكان حقا أن يشغل اللون عليه عقـله وعاطفته ..

تمثل هـذه المختارات الفترة الحانقة الحاقدة من تطور الفكر الافريقى ، ولـكن الشعر مشى بعيدا منذ ذلك الحين . هدأت عاصفته الا قليـلا ، واتجه لغير الحنق والحقد ، ترك التمجيد الخطابى للقارة وتراثها القديم ، وشرع يكتب اليوم فى هدوء الواثق ، يأخذ على الأوربى أن جهله وان سخر من حياته ، ويشير عليه أن يتحرك ليرى الطمأنينة التى تسـود الحياة الافريقية والحيوية الخصبة التى يجدر بالاوربى أن يقتبس منها ان أراد خلاصا لروحه المـكدودة المتعبة من فعل الاعوام وسحق الآلة ، ويكتب فى المواضيـع الانسانية البحتة التى لا يكون شعر الا بها ان أراد أن يستأهل اسمه ، وسترى قليلا من هـذا الذى نقول فى النماذج التى سنضعها الآن بين يديك ..

نماذج شعرية من أفريقيا

وضحكت ثم ضحكت

شعر : جبريل اوكارا (بنجيريا)

اغنياتي لديك سيارة ..
خنقتها سعلة ..
فهي تدور ،
وضحكت ثم ضحكت ..
وسيري فوق ارضي قبل ميلادي
كان لا يسمو لادراكك ..
وهو ادراك محيط ..
اذ مسيري غير انساني ..
وضحكت ثم ضحكت ثم ضحكت ..
من اغاني ضحكت ..
من مساري قد ضحكت
فرقصت مع دق الطبول
رقصاتي وهي سحرية ..
وسرت في الليل انغامي اليك
وهي ترجوك ، تعال ..
اصبع في اذنيك ..
وعزوف ، ما كفاك ،

رحت تففو هازلا
وضحكت ثم ضحكت ثم ضحكت ..
لـكن ضحكك كان ثلجا ، فتجمد
فى النهـــــاية ..

كانت أحشاؤك هكذا ،
فانظر اليها تتجمد ،
مثل ضحكاتك ..
وأتى صوتك من بعد ، تجمد ،

ثم أذناك ، وعيناك ،
لم يعد فى الطوق أن تضحك ،
وتدلى خشبا منك اللسان ..
جاء دورى ، هاأنذا أضحك منك

ضحكاتى ضحكات صاخبات دافقات
حيوية ، قهقهات عاليات
ما رأت ثلجا يجمدها ..
لا ولا اعرف آلة

خنقتها سعلة
فهى تدور ،
لا تســـــــير ..

ضحكى نار العيون
قبس الارض ، لهب من سماء
نار بحر أزرق ، نار نهر
يمنح الـكل الحياة ..

من انهرى المذاب ، اشجارى الخضر ،
من وحوش الغاب ، أسماك المجارى
ضحكتى منها جميعا ..

وهى ان جئت قريبا ، قد تعين ،
قد تذيب الثلج فيك
فهى حرى ، وهى جمر ..
قد تحيل الصوت صوتا وتعين الاذنين ،
كلها اسرى ثلوجك ..
اقترب تفتح العينين منك
والشفتين واللسان ..

وتواضعت اخيرا ، كان أولى من زمان ،
وهمست ترجو ، همسة العانس الودود ،
« لم هذا ؟ » قد سألت
فأجبناك نقول :
انت لم تنظر أخى ..
لو فعلت يوم رجوناك رايت :
اننا جذوة من أرضنا ،
قطعة لا ننفصم ..
تشدنا اليها هذه الاقدام
عارية ..
لا حجاب بيننا
لا خفـــــــاء

الى نيويورك
(لأوركسترا الجاز : ترمبيت سولا)

شعر : ليوبولد سيدار سنغور

نيويورك ـ رايتك بداهة فاضطربت لهذا الجمال
حرت فى فتياتك ، ارتو لسيقانها الطويلة الذهبية ،
وراعتنى عيونك المعدنية بادىء الامر وخجلت

ثم انعمت عيني في بسمتك ، انها جليد ففهمت ..
الم ممض في الصدر في الاعماق يخرق كل شارع ،
والعيون تظللها الـكفوف تراعى الناطحات
بعيدة خفت وراءها شمس السماء
وضوؤك كله فوسفور ، وخلالها أبراج البيوت
حمراء كالغيظ ، كالـكبد المثار ..
رؤوسها طعنت كبد السماء وبجنبها اخواتها
تعلو وتسخر بالزوابع والعواصف
لا تهاب ، عضلاتها حديد ..
واهابها استوى ثم ذبل ، لا تخترقه خارقة ..
راح أسبوع واسبوع يليه ، فيها طرفت مانهاتن
وانقضي ثالث من بعد ..
احتوتني بعدها رجفة
كانقاض النمر شد الجوع أعصابه
أسبوعان ، لا أنهار ، لا حقول ، لا شجر ،
على النقيض ، تساقط الطيور
موتى فجأة على السطوح المرمدة

لوث الجو الدخان ، سممه ..
أسبوعان ، ما رأيت طفلا ، تزين وجهه ابتسامة
يده في يدى يرنو الى في شقاوة ، أرنو اليه
في حنـــــــان ..
ما رأيت ثدى أم ، كل الذى أراه سيقان من النايلن
الاثداء لا تعرق هنا ولا السيقان ، لا تفوح ،
ما سمعت مذ قدمت لفظة حية عطوفة .
الشفاه ها هنا عدم ،
والقلوب تشترى نقدا وعدا في الفبارك والمصانع ..
لا كتاب يحمل الحكمة من صدر لآخر ، كلها ذكية..

ليالى الارق ، يا ليالى مانهاتن ..
تتلوين والضوء يلهب ظهرك كالسياط ،
ونفير السير حولنا ، يسوق الليل سواقا ، لا سلام
كلها أصوات جوفاء ، لا معنى لها ، هباء ..
والمياه السود عكرى فى الانابيب خفيه
تحمل الحب عظاما وجلودا وقذاره ،
أول الليل نظيفا كان اذ صنعوه ،
كله صحة ، وفى الصباح
ما أشبه الامواه بالانهار
فاضت بالجثث ، جثث الصفار ،
أولاد الخنا ..

نيويورك اسمعى ،
اسمعى ، اقل لك يا نيويورك
دعى الدم الاسود ينساب انسيابا فى عروقك ،
دعيه ينصب انصبابا فى دمك ، فى كل جارحة ،
صدئت جوارحك ، أصبحت حديدا .. دمنا
زيت الحياة ..
الدم الاسود ان خليته يعطى جسورك
حنية الارداف ، اطرى من زواحف ..
استعيدوا الآن آمادا مضت
وأعيدوا معها العيش الجميع
بين أسد الغاب ، ابقار القرى ، قش الحقول ،
كلها كانت كذلك ..
كنا جميعا واحدا ، لا ترى شقا ولا فصما بها ..
كانت الاعمال شطرا من ذكاء العاملين ،
كل فكر يعمل، كل اذن بفؤاد ، ارتباط الحس بالشارة
هذه أنهارك تهمس همسا

عطر تمساحها ، وخراف البحر اعينها كأمواه السراب
صفارة الانذار من أبدعها ؟ لا اكسروها ..

افتحوا القلب لابريل
انظروا قوس قزح ، انظروا الوانه ، أزهاره
وافتحوا آذانكم ، فوق آذان الجميع ،
تسمعوا صوت الاله ،
خلق الارض وأبعاد السماء من ضحكة
فى ساكسفون ..
ستة أيام وراح
يومه السابع يغفو وينام
نومة عظمى ، كنوم الزنوج ..

يكفيكم ابريل ..

لاعبا الناى

من شعر : جان جوزف رابرفلر (ملاقازى)

نايك
اقتطعته من ظنبوب عجل ذى خوار
وصقلته صقلا على رابية جدباء
ساطعة الشمس حوافيها ..
نايه
صيغ من قصب يرجف فى النسيم
قد القدود فيها قرب ماء جارية
سكرت بالاحلام القمر ..
تلعبان ، كل نايه ، معا ، فى عمق أعماق السماء
وكأنما أمسكتما بيديكما القارب الدائرى
انكفأ عند شطئان السماء
وجهدتما ولعبتما تسعيان

تنقذانه من يومه
مصـــــــيره :
لـكن ،
اتسمع النواح فى الاغانى الآلهة
اتسمعه آلهة الرياح ، آلهة الارض
ربة الشحر ؟
اتسمع الغناء والشجن
آلهة الرمال ؟
نايك
فيه من عجله اثر
تاتيك منه انغام عليها ثورته ،
تجرى الى ارض الخراب
وتعود جارية ،
ملفوحة من ظمأ ، ضامرة من جوع ..
الى أين ؟ لجذع نخلة ؟
لا ظل فيها ، لا ثمر ، لا ورق . ؟
نايه
لدنة كاصلها القصب
تنحنى آدها ثقل عصفور عبر ..
ما نفش الريش عليها ولد .
ما عبث .. لـكنها غريبة
بعيدة عن كنها
ترعى الاطلال ، تبحث عن عزاء ،
لدى المياه الجارية
نايك يأخذنى و نايه .
كل على أصوله ينتحب
ويحملان الندب فى انغامكم
حزنى مريرة ..

الـزنجيـة

كلمات كالدم النازف حارة
كلمات كلها سد الربيع الزاحف
نافض الخنزير ، وجف البرك
ثورة البركان نيران الفسق
لهب اللحم ونيران الدساكر ايمي سيزار

ألقى الرئيس الشاعر ليوبولد سنغور فى السادس والعشرين من أكتوبر الماضي خطابا فى جامعة اكسفورد ، أوقف أكثره على الزنجية . تحدث طويلا عنها وحولها ، وهو واحد من ابنائها ودعاتها الاولين ، وكاد أن يعجز عن تعريف هذه الحركة فى كلمات واضحات ، ولا لوم عليه ، فقد تشعبت الزنجية واحتوت أكثر من شيء الآن ، بعد ربع قرن وتزيد من نشأتها فى باريس ، لم يعد لها ذلك المعنى المحدد المعروف حين كانت قصائد هنا وهناك تثير قارئها اثارة ، تتحدى ملكاته ولا تحمل اليه معنى بعينه يسكت عنده ، يكتبها شباب من القارة السوداء والمارتنيك لا وشيجة بينها الا تلك التى تشد طالب العلم لأخيه فى حجرة من حجرات باريس او لندن ، يقرأ انتاجها القارئون ، على انها جذوة من السريالية التي كانت تشغل الناس ذلك الوقت او قبس من التعبيرية ، وكانت امل الشعر والشعراء آنذاك ، وجهد من هذه الجهود المتنوعة الطريفة لتحديد شكل

الشعر أو مضمونه ، ثم تقدم الزمان بالحركة ، وكثر شعراؤها ، وجاء نقادها فى ذيلها يبحثون عن فنونها ، ويخرجون ما تحتمله وما لا تحتمله قصائدها ، وكذلك يفعلون . وما كان عجيبا ان يسترعى هـــذا الشعر الجديد الانتباه ، وان يستقر ويتخذ ركنا فى الشعر الاوربى ، اســـلوبا مميزا لاكثر ما يكتب الزنوج فى افريقيا والمارتنيك وجزر الهنـــد ، وكثرت الشروح والتاويل لها حتى قيل ان الـكتاب والشعراء والنقاد كلهم يعرفون الزنجية تعريفا يتفق وما يهـــدفون اليه حين يكتبون ، فقد اتسعت آفاقها اتساعا لم يعد فى الوسع حصرها ، وحاز ــ لذا ــ ان يرى كل واحد ناحية تروق له ، وتقوده لحيث يريد ..

قال سنغور الرئيس الشـاعر فى خطابه هـــذا الذى أشرت اليه « الزنجيـــة ذلك العقـــد الجميـــع من القيم المتحضرة ، التى تميز الشعوب السوداء ، الثقافية منها والاقتصادية والاجتماعية والسياسية. اىعالم الزنجى الافريقى كله » حديث مهلهل يشق عليك أن تدركه ان لم يتح لك أن تقرأ كثيرا من هـــذا الشعر الذى رايت نموذجا عسيرا منه فى صدر هذا البحث ، وسترى غيره ان تقدمت معى فى الذى أقول ، ولعل الرئيس الشاعر اوجز واخل لانه كان يخاطب صفوة من الناس قرات له ، ولغيره من رواد الزنجية الاوائل وشعرائها المعاصرين ، وعرفها على هذا النحو ، الذى لا ينفع الا لقلة تعرف مسبقا هذا الذى يعرفه ، ولـــكن الشـــاعر الملاقاز (المدغشقرى) روبيماناجارا كتب يخـاطب غـير هذه الصفوة ييسر عليها الصورة المغلقة يقول : « ليس من الســهل ان يلخص الواحـــد منا القيم التى تمثلها

الزنجية ، ولكن لنا أن نقول ولا نسرف فى التعميم ان قلنا ، ان هناك شيئين : هما الوجود الافريقى والثقافة الافريقية ، وعليهما الآن أن ينتفعا ويفيدا من طرائق التعبير الحديث » . كلمات أقرب الى فهمنا نحن الذين لم نبدع الحركة كما فعل الرئيس الشاعر ، ولم نقرأ نتاجها كله فى حياتها هذه الطويلة . تقول لنا دون تعقيد ، ان الزنجية تعبير هذا العصر عن ثقافة الافريقى ، كانت اداة التعبير عند الافريقى فى الزمان الابيد ، الطبل والغناء ، فالزنجى الافريقى لم يخترع كتابة ، كما تعرف كان يعبر عن نفسه بالرقص والغناء ، وتحمل رسائله فى الغاب ، وبين الجماعات المتفرقة فيه الطبول ، وكانت الرسائل بالطبل مهنة لا يتقنهـا الا القلة التى توفرت عليها ، وكانت تفي بحاجة الناس ، كما تفي الكتابة ، وتعيش فى أعماق القارة حتى يومنا هذا ، فئة من هؤلاء الذين يكتبون الرسائل بأنغام الطبول ، ويقرؤونها ان اتت من بعيد ..

وجاءت اوربا فتعلم الافريقى ـ فيما تعلم ـ الكتابة وأضاف بها الى أدواته هذه التى ذكرنا أداة افعل وابقي وأيسر ، ويقول لك الشاعر الملاقازى في تعريف الزنجية انها ثورة فى الشعر الزنجى اداتها طرائق التعبيرالحديثة من لغة وكتابة واسلوب ، وهدفها ان تبعث الوجود الافريقي وقد غفا فى نومة طويلة منذ دوختها الحضارة الاوربية ، وكادت أن تقتلها لولا هذه اليقظة ، وجدير بنا ان نقف طويلا نسترجع الخطى ، عبر الاعوام القليلة الماضية ، لنعرف متى وكيف استيقظ الزنجى ثم ثار ، فقصته هنا طريفة تحيط بها دوما نسية تثير الفضول وتدفع للتطلع ..

العام ، عام ١٩٣٩ ، وأوربا تسير لحتفها فى خطوات عنيدة ، تجر وراءها الناس ، لحرب أخرى من حروبها العدة ، فقد كان لها التصرف والولاية آنذاك ، ولغيرها الطاعة والانقياد ، وفى قطار من هذه القطر العديدة تحمل الجنود هنا وهناك ، لايسالون عما يراد بهم آخر الامر ، كان يجلس ايمي سيزار شـــاب من المـــارتنيك فرنسي الا فى لونه ، قرأ فى السربون ، وبقى فى باريس التى ازدهته ، لا يفكر الا لماما فى أهله وراء البحر . وجلس جنبه بحار أسود فاذا بنفسه تغثى منه ، وحرج قوى يلفه طول الرحلة ، حرج ما كان ليحسه لو جلس بجانبه بحار أبيض فيما قدر بعد ، وفى داره حين عاد اليهـــا خجل من نفسه هذه التى انكرت لونه وانقلبت فرنسية وما هى فى الحقيقة كذلك ، وجلس لـكراســته يصب تجربته هذه الاسيفة فى قصيـــدة ما خالها وهو يجرى سطورها المحمومة ستكون انجيلا يحتذي بعده . اسم القصيدة « مذكرات عائد للوطن » وليس من زعمي ان اعربها كلها فما فى طوقى ذلك ، لـكنى اريد لك أن تقرأ هذه الشطرات التى تشيد بقومه الذين أنسى فى أعـــوام عيشه الطويلة فى باريس ، ونذكر فى شق ثانية ، وأريد لك أن تتخيل قوتها الاولى ، قبل أن تهـــزل القصيدة فى كلماتى الكسيحة قال :

مرحى للذين ما اخترعوا حاجة قط
مرحى للذين ما كشفوا النقاب عن امر قط
مرحى للذين ما غزوا ولا فتحوا بلدا قط
مرحى لهم
يستسلمون لجوهر الاشياء
يجهلون العرض والصدف

النغم والايقاع فى دمهم
يهزهم يرجهم اللحن القوى ذو الرخم
ما همهم ان يفتحوا أو يقهروا
يلعبون لعبة الحياة حولهم والكون

وينبغى أن أقول هنا للذين يعنون بالنظم وقواعده المألوفة ، انى لم أضع شولة ولا فاصلا كما كان يجدر بى أن أفعل ، لأنى لا أجد شيئا من هذا فى الاصل : كلمات بعضها فوق بعض ، كأنها خرجت دفعة واحدة من فم قائلها ، تمثل هذه اللهفة على قول ما يريد أن يقوله بأسرع خطو يستطيع ، وفى نفس واحد ، يريد ليسمع الصم الذين وصموا جنسه بكل نقيصة وهم لا يفقهون ، يريد ليسوق أهله أمامه : أن أدخلوا التاريخ مرة أخرى وكنتم بضعا منه لا ينفصم ، فهذه مواهبكم ، تختلف عن مواهب غيركم ، ولكنها موجودة ، وان أنكر الفاتحون



اعتب سيزار ، لكن العالم كان فى شغل عنه وعن توبته ، يجاهد ليحيا الحرب التى جندت كل الذى يملك : عاطفته ، عقله ، وما صنع فى الاعوام ، ومشت قوى الفتك نحو باريس ، يسمع أصداءها الفرنسيون تملؤهم رعبا ويرهب الوجلين كل مكان • وكان اندرى برتن ، امام السرياليين واحد من هؤلاء • خرج للمارتنيك عام ١٩٤١ ، وأقام بها زمنا قصيرا اكتشف فيه « الشاعر الاسود العظيم » سيزار ، واحتضنه يدق له الطبول حاسبا اياه واحدا من حوارييه ، ولا تثريب عليه أن اخطأ ، فبين شعراء الزنجية ، وكان قد تكاثر عددهم وقتها ، وشعراء السريالية مشابه ، على رأسها هذه الفتنة بالكلمة ، ولكنها فتنة تختلف : يعمد اليها

السرياليون ليصوروا بها الاحلام والرؤى ، وكل ما اتصل بعقل الشاعر الخازن ، لا يختارها الواحد منهم اختيارا ، تنثال عليه يضعها كما تجيء من ينابيعهـــا البعيـدة فى الاعماق ، رموزا صادقة للأحلام . أما الزنجى فيعمـد اليها عمدا ليغزو عالم الاشياء ، يستعين بها على تغيير ما حواه ، يغنى بها احنه ، ويعرض خلالها جروحه ، وعيشه الموزع النهب بين الحضـــارة الحديثة ، وتراثه القديم ، وتتحد الـكلمة قوة أفعل عند الشاعر الاسود ، لأنه أكثر الاحيان يريد ليكون لسان قومه ، قومه الذين كانوا ، والذين معه اليوم ، وبين هذين فى عقل الزنجى رابط وثيق كما نعرف ، ولنعد لهذا كله فى حينه ..

انتهت الحرب ، وعاد برتن لفرنســـا ليبشر بكشفه المثير ، فنشر مذكرات عائد للوطن ، وقدمها لأهل الفكر والشعر فى عام ١٩٤٧ ، ولم يكن عاما كالاعوام فى حيــاة السود . كانت افريقيا الزنجية قد تحركت نحو حيــاة جديدة ، وقد رأت من مقاتل الرجل الابيض فى الميدان اكثر من مقتل ، فضاقت باستعلائه عليه وطغيانه ، أكثر من ذى قبل ، وعرفت عن بعض أفراد مجموعتــــه ، الشيوعيين بعبارة أدق ، كيف تأتيه فى حنـــاياه تمزق درعه ، وقد وهت مع الحرب ولانت مع الحاجة . خرب البرج الحديدى الذى عاش فيه البيض بعيدين كالسراب ، يلوحون من بعيد لعين السود ، وصـــاروا أقرب منـــالا وتعلمت افريقيا وهي تحارب فى صفوف البيض منافع التنظيم واثر الوحدة فى وجه النفوذ الواغل ، فـكانت الحرب لهم ــ كمـا كانت لـكثيرين غيرهم ــ مدرســة تعلموا فيها فنون صراع الاســتعمار . نشر الحلفاء عام ١٩٤١ ميثاق الاطلنطى وتوالت بعد هذا تلهث لا تلتفت

للوراء صرخات افريقيا ، ممثلة في مذكرة ازكوى ورفاقه و « اتحاد طلاب غرب افريقيا في المملكة المتحدة » عين ذلك العام ، وفي ظهور كينياتا ونكروما على مسرح المؤتمر الافريقي الخاص في مانشستر عام ١٩٤٥ ، وفي ظهور هوفي بوني وسنغور في باماكو عام ١٩٤٦ ، لينشئوا مع غيرهم حزب التجمع الديمقراطي الافريقي في الشطر الفرنسي من غرب القارة ، وفي رجوع نكروما من لندن نفس ذلك العام لينشيء مع رفاقه الاولين « ميثاق ساحل الذهب المتحد » وفي رجعة كينياتا لينشيء « الاتحاد الافريقي في كينيا » ، وفي ظهور اوولو على المسرح ينشيء « عصبة العمل » في غرب نيجيريا عام ١٩٤٧ ، وفي يقظة روديسيا نفس ذلك العام تنشيء المؤتمر الوطني الافريقي . ما كان عاما عاديا هذا العام الذي ظهرت فيه القصيدة الانجيل طبعة ثانية ، وافق ميلادها الآخر ميلاد افريقيا وبحثها الجديد عن استقلالها الضائع ، وكانت الوقود لنزوعها الحميم نحو اثبات ذاتيها ، والوعاء لوجودها القديم في ضمير الزمان وثقافتها التي بقيت في أعماق أعماقها ، وأن جهد الذين احتقروها على اخفائها ونكران وجودها حتى حين ..

ولزنجية سيزار هذه سلف لا يذكره مؤرخو الادب الافريقي المعاصر ، لأنه فشل ولأم المخطيء الهبل ، كما قيل في القديم الغابر ، ولعل قراءات سيزار في الذي أنتج هذا السلف بقيت في دمه وهو لا يعي ، وخرجت صارخة يوم ثار على كيانه الذي كاد يفسد ، فكتب قصيدته التي فتحت الطريق فيما نزعم الآن ، وكانت في الحق مطروقة عفا عليها الفشل في الثلاثينيات من قرننا هذا ، كانت جماعة صغيرة من شباب المارتنيك أيضا ،

تصدر مجلة أدبية فى باريس ، تغذيها روح من تلــكم الارواح التى تعبر الزمان والمكان كالشـــهب ـ اتيــان لبرو • ثار ورفاقه على الرق الثقافى الذى الفوا نفســهم فيه ، وكرهوا معها هذه « اللغة الحيادية » التى كانوا بها يكتبون . ادركوا ان عبقرية اللغة الفرنسية هى قدرتها على وصف المجرد ، والزنجى فيما يعرفون رجل دافق العاطفة يجنح للملموس ، وكان حتما ان تلجــأ هــذه العصبة الصغيرة الى سريالية مؤفرقة ان جاز أن نعبر عنها هكذا ، يبعدون بها عن طغيان لغة الاوربى ، يعبرون بها عن نفسية الزنجى . كرهوا هذه الاداة التى نطقت مقابحهم كلهـــا « أفريقيا الســوداء » و « الاهالى » و « المتوحشون » و « نعم الحضارة الحديثة » و « عبء الرجل الابيض » ، ولعلك تذهل حين تقرأ معى ســنغور تلــكم الايام ، يعبر عن ضيقه بطوق اللغة الفرنسية ، وهو الذى ما عده حتى أهلها غريبا عنها • أو دخيلا عليها وعينوه فى يوم من الايام ، عضوا فى لجنة تراجع اجرومية دستور الجمهورية ، لقــد نزعت ســخيمته الاعوام والسلطــان الذى اتاه من بعد ، لــكنه أوجز موجــدة الشباب على ذلك العهد ، حين قال فى الــكثير الذى قال :

غريب أنت عنى
فى لباسى ولسانى
أيها القلب المطوق
أذلك الثقل المعار
من أوربا
هذه الاحرف ثلج من فرنسا
تخنق القلب الخفوق الحى

من سنغال
كل ما ألقاه فى هذا شقاء ووجع
لا رجاء أرتجيه ..

***

ولكننا لن نفهم قضية الزنجية ضد اللغات الاوربية ، ان لم ننظر الى فلسفة الافريقى فى الحياة ، الى فهمه لها وتقويمه اياها ، فالعالم عنده روح بعضه من بعض ، كل نوع من الحياة فيه ، كل شىء فى الوجود « قوة فاعلة » فى الجوهر الاساسى ، وهذه القوة ليست صفة من صفات ذلك الكائن ، بل ذاتها وصميمها . الانسان ، والنمر ، والحجر ، والقشة ، فى كل منها « قوة فعالة » هى من كيانها القائم وذاتها التى نراها ، تتجمع هذه القوى المفردة فى واحد ، لانها – فى الحقيقة – مظاهر لقوة فعالة للجميع ، تزيد وتنقص وتبلى ولكنها باقية . الجسد والتنفس والكائنات المفردة كلها بخصائصها التى هى بضع منها ، تجسيد لهذه القوة للجميع ، فالوجود لا يعرف الانفصال والاستقلال ، وهو كتلة من هذه القوة الفعالة متماسكة تتأرجح ذراتها المتكاملة ، لانها حية تستجيب لما تستجيب له الذرة المفردة ، والانسان جانب من جوانب هذه الكتلة ، ضلع فى الكون المتكافل ، لكنه التجسيد الاعلى لهذه القوى المتداخلة وهو وحده القادر على التأثير عليها ، لانه يملك موهبة يمس بها هذه الذرات . أوتى التمائم والرقى والتعزيم والسحر والتعاويذ وبها يسترجع الارواح . فتتداعى له القوى ، ولم يكن ليستطيع هذا لو لم يكن ، جنباً فى هذا الكل الواحد المتكامل ، ضلعاً فى القوة الفعالة الجميع ، ولعلى أوضح هذا الذى الخصه

لك عن الأب تميل الذى وهب قدرا طيبا من حيـــاته لدراسة فلسفة الزنوج فى الحياة ، أن تقلت لك بضعا من شعر افوا مورقو الشاعرة ، العانية • فمن شعر شعراء القارة واغانى فتيانها واحاجى عجائزها وقصص امسياتها عرف الباحثون عن فلسفة القارة . توغل هذه الشاعرة المجيدة فى رؤاها عن وحدة الكون ، حتى ليبهم علينـا نحن الذين لا نعرف على وجه التحقيق منـابع الهامها كلها ، أن نتبين كل خيال وكل صورة فى قصيـــدتها « المفتدى » لـكننا لن نخطىء معالم دنياها التى نمتها لتقول :

من حياة البيض ، تسلبها الحياة
وهى حلوة
وهى لن تفنى
فيك من حوائنا العذراء نسمة
لا فرار ، سلمى •
• • • • • • • • •

وقفت ، وهى تخطو ، فرأتنى ورايت ،
روحها ترعى اطارى تخرقه
واطارى من اطار الزاحفات ،
ومضت تخرقه حتى توجعت
تلويت ، تطويت
وغلا سمى الذى اختزن
روحها المفداة لفتنى سناها ..

أما الرئيس سنغور فلا يضرب فى الغاب ، كما يقولون ، يسير قدما لغايته في التعبير عن هذه الوحدة فى الكون ، فيغنى لها فى كلمات واضحات . تملـكته فرحة طاغية وهو يقرأ عن هذه « الوحدة التى أعيـــد اكتشافها »

فطرب وغنى ، وكان من قبل يحسها فى نفسه ، ولا يجد لها الشواهد فى الذى يعرف عن نظرات أهله للحياة ، حتى أتى قومعكفوا على التراث الافريقى، واللغات الافريقية، فقضوا اعمارا يدرسون ويسجلون ، وخرجوا بذخيرة فى هذا ما كان لتكون لولا بيعهم الحياة للعلم . قال سنغور يعلن عن هذا الاكتشاف الجديد يهلل له ، يبشر به :

وعصور من الزمان الابيد أبت
فى خطاها رأيت كونا جميعا ،
فيه تحيا الاسود ، والاشجار
بضها لبضع ، تتمه الابقار ،

ونرى الفمل محدقا بأخيه
لا انفصال ، كارتباط القلوب بالآذان ،
ارتباط الاشارات بالحس ،
كل جميع ..

ولك أن تقول ان الرئيس يصدر عما يقرأ ، وعن قدرة على تزيين كل الذى كان من قبل ، لأنه يريد لأهله أن يبعثوا جديدا ، ولا بد للبعث من قواعد يقوم عليهـا وأسس ، وربما كنت على حق فى الذى تقول ، لـكنك لن تسوق حجة كهذه ان قرأت هذه القصص التى يكتبها ايموس تتوالا ، الرجل الذى لم يلق تعليما يقال عنه ، ويكان أن يكون اليوم أشهر الروائيين النيجيريين . يقول فى قصة له : « وعرفنا السـيد ضحك شخصيا ذلك المساء ، ذلك لأنه لم يسكت عن الضحك علينا ، وقـد وقف الجميع ، ظل يضحك علينا وحـده ساعتين . وعندما رأينا السيد ضحك ، يضحك علينـا ذلك المساء ، نسينا آلامنا أنا وزوجتى ، بل شرعنا نضحك معه ، لأنه كان يضحك بصوت غريب ما سمعنا مثله من قبـل فى

حياتنا . هذا ولم يعرف أحدنا متى شرعنا فى هذا الضحك ، ولكننا كنا نضحك على ضحك السيد ضحك ، ولا يمكن لأحد الا أن يضحك حين يسمعه يضحك ، واذا ما استمر احد فى الضحك مع السيد ضحك نفسه ، مات او داخ لتوه ، وذلك لطول ما يضحك ، ذلك لأن الضحك مهنة السيد ضحك وعليه يعيش ومنه يقتات ليكون . وشرعوا يسألونه ملحفين ان يوقف الضحك ، ولكنه لم يستطع » ..

لم تستطع الحياة الاوربية التى غيرت كثيرا من بيئة الافريقى الزنجى ، أن تعبر عما فى عقله الخازن وحساسيته من فلسفات قديمة تطفح على السطح فى كثير مما يكتب الشعراء القصاصون حتى على أيامنا هذه ، ذلك لأنها فلسفة شاملة ما أبقت فى الحياة شيئا الا وتحدثت فيه ووضعت قواعده .« اعطت الشكل لحضارة متسقة لأركان كلها متكافلة » وعجزت حتى المسيحية عن أن تصيب ما أراده لها المبشرون من نجاح كامل ، فالافريقيون لم يلقوا بفلسفاتهم ودياناتهم جانبا ليحتضنوا العقيدة التى إتى بها الاوربى ، أو لم يلقوا بها ، كلها على الاقل . استوعب الضمير الزنجى هذه العقيدة الجديدة استيعابا فى ضميره وتمثلها فى خياله فاختلطت بفلسفته اختلاطا لا يبين للباحث أين التقت هذه بتلك وكيف سارت « خاطِ الدين الجديد فى طرائق تفكيره ونمط عيشه ، على نحو لا تبين معه الخطوط » ذلك لأن الفلسفة الافريقية اذ تبدأ عند وحدة الكون التى أشرنا اليها ، تمشى فتتضح خطوط الحياة دقيقة ، فى كل الذى يتصل بها من فناء وبقاء ، وموت وبعث ، ودين وفلسفة ، وأسلاف وخلف ، ووالد

وولد ، وفلسفة وأسطورة ، وروح وجســـد ، تربط هذه ببعضها ربطا محكما فى نظام للفكر دقيق عميق ، شرع العلماء من كل لون يفصلونه للعالم الذى جهله هذا الزمان الطويل ، وهي فلسفة حقيقة بالدرس والتمثيل ، يحتاج لها العصر الحديث وقد فقد قاعه الذى يمسكه ، يحتاج لها لأنها فلسفة « اللقاء الـكامل » كما يسميها سيزار ويعرفها العلماء ..



ولم يكن بد من أن يتبع هـذه « الوحدة التى أعيد اكتشافها » فى ضمير الزنجى ، منطق جديد . ذلك لأن الفلسفة التى رأيت موجزها ، لم تكن لتحيا على المنطق الاوربى . هذه نظرة للحياة تتشابك أطرافهـا ، ونظرة الاوربى للحيـاة تختلف ، تراها أشطـارا وتفكر فيهـا كذلك ، كل شيء على حدة ، وما كذلك العقل الزنجى . شبهه الرئيس سنغور فى بحثه الذى ألقاه على المؤتمرين فى روما صيف عام ١٩٥٧ لبحث شئون الثقافة الزنجية ، فقال : ان منطق الزنجى يشـــبه مجرى الدم فى الانسان ، عنده تختلط الاشياء كلها بعد أن تصب فيه ، تســير جمعا الى القلب ، وتخرج منه سائلا واحدا جميعا لا تبين مكوناته ، لـكن الخروج على المنطق الاوربى لم يكن كله ذكاء كهذا الذى يقوله سـنغور ، وتحليلا يعتمـد على معرفة دقيقة بالفلسفة الافريقية ، كان بعضـــه ، بل أكثره ثورة وضيقا بالمنطق الذى وصـمه وقبحه ، كما أشرت . لقـد سـكن الزنجى طـويلا لمنطق الاوربى ، وطرائق تفكيره ، حتى لحقر نفسه وارتضى لها مكانها زريا فى موكب العالم ، قهره العقل الاوربى ، فاستخذى وما أن وجد ذاته ثار ثورة ملتهبة : « أيها العقل ، أنا

اذبحك ضحية على محراب نسمة الماء . انك ادعيته لنفسك انك لغة النظام ، انت عندي جلدة السوط ، ولكن آه ، هـــــذه ضحكتي الغليظة الخشنة المحظورة ، ذخيرتي من ملح البارود ، لأننا نكرهك انت ومنطقك .

اننا نبتهل الى رؤى السخف واطياف العبث ، ونلوذ بها ، وفينا عناد يزدهر مع أكل لحم البشر . كنزنا اذن هو هذه الجثة بنا والمس ، مس لا يفتأ يذكر ، يصرخ باعلى صوت ، ويرى خلال السجف ، جنون طليـــــق جموح ، وأكثر من هذا ، انك تعلم ان اثنين واثنـــين خمسة ، الغاب يموء مواء القطط ، والشجرة تستخرج القسطل من النار ، والسماء تمسك بذقنها تمسحه ..» غضب مغلق وحقد لا يبين ، حين تقرأه بداهة ، لـكنك ان ألفت شعر سيزار ، وهو كثير الآن ، وبعض نثره ادركت انه لا يكره المنطق كله . يكره نموذجا من المنطق،

يخطىء الحساب « اثنين واثنين خمسة » يخطىء اذن كل شيء ، رمى الزنوج بكل قبيحة حتى « باكل لحم البشر » ونسى وهو فى عزته وخيلائه مواهب الزنجى ،

كذاكرته التى تعيش مع الجنون الذى « لا يفتأ يذكر » ماضيه المجيد وحاضره التعس ، ويؤكد بعد هذا كله انه ابن الطبيعة أخوها اللصيق بها « تستخرج القسطل من النار » له

أدرك الزنجى ، وقد يقظ حسه الذى خــدر وعقله الذى غفا ، أن المنطق الغربى ، كان عقل سوط وشتم ،

عاش على فهم خاطىء وجهل بعقــائد افريقيا وعاداتها الغالية ، وواجبـــه أن يثور عليه ، ويخترع عقـــله هو ومنطقه ، بعيدا مما علمه الاوربى ، واكتشف وســط حنقه هــــذا وضيقه انه لن يحتاج الى اختراع ، قدر

احتياجه الى اكتشاف وسائل التفكير لدى أسلافه ، واعانه على ذلك الباحثون فاقتنع ان هذا العقل المشتت الموزع الذى نماه الاوربى عبر القرون ، أعجز من أن يرى الحياة الافريقية ، فهي كل متكامل ، وهو لا يرى الا شيئا معينا فى وقت معين ، ولا يحسن غير رؤية العين ، ومشى خطوة الى امام فاقتنع بأن نجاة الاوربى فى الاخذ بمنطق الافريقى ، هذا المنطق الغريزى الذى يصارع الاشياء يطوعها لنفسه ، يحور الكون لأنه يفهمه بدمه ويعيه بعقله . يفكر الزنجي بعاطفيته ، فيسرى لذلك عقله تحت السطوح لا يقنع بالرؤية وحدها دون البصيرة ، وينفذ لاعماق حقائق الكون . والزنوج المحدثون ورثة هذه الفلسفة ، يريدون ليطبقوا قواعدها ويدللوا للانسان فى كل بقعة على الارض أن القيم الاوربية المعاصرة خويت ، وان الحضارة الغربية بمنطقها هذا القاصر ، وقدرتها الآلية الكثيرة ، واقتصادها التجارى الزاهر ، لن تنقذ الانسان من ذهوله وفراغه ومرارة النجاح فى فمه . عليها ـ فيما ترى الزنجية ـ ان تعد نفسها لتقبل هذه النسمة الجديدة من بلاد الزنوج اين كانوا وتفتح النوافذ لتدخل منها حضارة كونية شاملة ، الحضارة الغربية بدء ، وليست ختاما ، ولا نهاية لما يتمكن للانسان أن يبلغه ..



اتصلت بهذه الثورة على المنطق الغربى ، ثورة أخرى حتم ، هى الثورة على اللغة . وأقول ، ثورة أخرى حتم ، لأن الفلسفة التى أتت بهذا المنطق ، كان حتما عليها أن تبحث عن لغة تعبر عنها ، ولم يكن فى وسع انصار الزنجية أن يخلقوا لغة ، فاللغات لا تخلق ، ولكن السعد

الذى حالف حركتهم ساق اليهم ثورات اخرى على اللغة لأغراض غير اغراضهم ، فالهمت الزنجيين الرواد ، لأن سيزار وسنغور وغيرهما من الاوائل ، بدءوا حيـــاتهم الثرية طلاب أدب فى فرنسا يلتهمون قديمه وحديثـــه التهاما ، يفتنهم عن كل شيء ، وكانت الثلاثينيات بين الحربين العالميتين اعوام تكوينهم الفكرى العاطفى ، اعوام مذاهب فى الشعر والادب ، جاء اكثرها نتيجة الحرب الاسبانية ، والهلع الذى لف العالم بعدها ، والجزع الذى أصاب حماة حرية الفكر على مصير الديمقراطية ، وهم يشهدون قلاعها تتهاوى واحـــدة تقود للثانية .

وكانت العاصفة التى لفت أوربا فى ليلها الحالك تقترب رويدا رويدا ، يراها الناس كل الناس . فى هذه الفترة من حياة أوربا الادبية اتخذت السريالية والتعبيرية فى فرنسا ، وهما الثورتان الرئيسيتان اللتـــان اثرتا على الزنجية ، مكانا جديدا فى قلوب أهـــل الفن . كانوا يصارعون عالما يسير للدمار ، يودون لو امسكوا بذيله كى لا يقع ، وراى الزنوج من افريقيـــا والمارتنيك ، وجزر الهند ، وهايتى ، شيئا يجمعهم وهؤلاء الدعاة . كانوا يصارعون الاستعمار وهو عالم محسوس ، عرفوا الذل والهوان منه ، وكان السرياليون يكافحون ليحفظوا على أوربا حياتها الآيلة للسقوط . جمعتهم جامعة الصراع..

لـكن هذه الجامعة لم تمش بعيدا بالفريقين . كان الاوربى تائها يخرب القيم القائمة ما استطاع ، لايعرف ماذا يقيم بعدها لنفسه وأهله ، ولم يكن كذلك الافريقى، كان يعرف ان عدوه الذى أذله على مر الاعوام هو النفوذ الاجنبى ، وكان قد اكتشف من ماضيـــه مقدارا ادخل الفرحة فى نفسه ، وأعاد لها الثقة المحـــاربة ، ووجد فى

أعماق ضميره وقارته تقاليد واعراف تشهد بأنه انسان ، وقرأ عن فلسفة القارة وطرائق تفكيرها ، وعرف انه فى حاجة للغة يعبر بها عنهما غير هذه اللغة ، ولكن الفرنسية كانت استهوته وعرف من أنغامها وقدراتها ما لا يجب أن يتخلى عنه ، وصارت شطرا منه لا ينشطر ، وضاق فى حيرته هذه ، فهرع نحو هذه المذاهب الجديدة يستلهمها ، وخاب سعيه ، لأنها كانت فيما تعرف ، مذاهب فرار على الاكثر ، ودعوته دعوة اقتحام وحقد وتكسير وبناء ، وبين المذهبين فروق : على ان الفن فى افريقيا ، وتاريخه قديم قدم القارة ، لا يعرف الفردية التى عرفتها أوربا ، يمارسه « الكل للكل » ، عمل مشترك ، يحوى الجميع ولا شىء فيه خاصا بواحد أو آخر ، وطبيعى ان قاعدة كهذه لا تعرف المفهوم الذى شاع على ذلك العهد فى أوربا « الفن للفن » لأنه مفهوم يقوم على انفصال بين الحياة والفن لا وجود له لدى الافريقى التقليدى ، والزنجى المحدث يتخذ مكانه زنجيا حقيقا بتراثه وتقاليده ، كلما اقترب منهما ونهل من ينابيعها ، كان أقرب لضميره وزنجيته ..

اذن لم تسعف السريالية ولا التعبيرية ذلك الاسعاف الذى توقعه الافريقى ، فهو لايريد أن يصف الطبيعة أو يقلدها كما يريد رفيقه الاوربى . الفنان الافريقى ساحر ، ونبى ، ومعلم ، ومن هنا تنطلق الزنجية ، فترى شاعرها كما رآه الاقدمون ، وتراه يصدر الآن عن حقد على الرجل الابيض ، يسعى ليثبت كيانه رغمه ، فهو وظيفة ـ كما يعبرون ـ لا يقول شعرا ليسلى نفسه أو غيره . يبدع ويثير ليعين نفسه وقومه وهو لسانهم ، فيما يعتقد ، على أن يكونوا هنا ، يجيئون هذا العالم

يشركون غيرهم فيه . والحاضر والواقع عند أنصار الزنجية ورماتها مادة يتخذها ليحورها ، لتعينه على خلق المستقبل الذى يرتئيه ، فشعره معني عناية بالطبيعة لا ليصفها فحسب ، بل ليصل وراءها وينفذ لمساربها الخفية ، ويصير بضعا من قوى الحياة ، فالخيال الفنى لا يقصد به أن يمثل الشيء نفسه ، فهذا مبذول يتاح لكل كدود ، ولكنه يسعى ليمثل حقيقة القوة التى تكمن فى ذلك الشيء ..

طموح وآمال يكاد أن يستحيل تحقيقها ، ولكن الزنجية لم تعجز عجز اخواتها التى انبثقت هى عنها ، وأخذتها السبيل للثورة على اللغة وما اتصل بها من خيال . وشهد بهذا سارتر وهو يكتب مقاله الشهير « اورفيوس الاسود » يقدم به مجموعة من شعر الزنجية . قال « كلماتهم تفوق حتى نفسها ، تكاد أن تنفجر مما شحن فيها ، تتجه نحو سماء ارتفاعها بعيد لا يدركه مدرك ، وأرض عمقها سحيق تشق على الرؤية ، ولا سبيل الى آفلاق أى منهما فهما فوق المنال ، كلماتهم تنوء بما يريدون حمله الينا ، ولكنها تساق خاضعة لارادتهم القوية الحية . يرمى الشاعر اخليته ، بعضها جنب بعض ، وفق قدرتها على اثارة الحقد والرعب ، لا وفق نظام قائم فى الاشياء ، تستمد الكلمة وظيفتها من القوى التى تكمن فيها ، لا مما تمثل من أشياء ، وكذلك الاخيلة التى يتصيدها هنا وهناك لشعره يخلق دنياه « من السماء والطيور ، من ببغاوات حقلنا ، من النواقيس واقماش الحرير ، من طبولنا ، من لمسة النزيف والشمل ، وهمسة الاخدان لا تخشى ولا ترع ، من زحمة الناس والمرجان ، من أيام الاحد ، والرقص ، من آحرف الصغار

ملثوغة ، ومن الحب الودود ، من حبى العميق الغسور لقبضات الصغار · من هذه سأبنى عالمى ، عالم الاكتاف والجبروت ··· »

ويخيل لك وأنت تقرأ هذا فى أصله ، ان افريقيا الزنجية ، ستطور مع الايام لغة لها ، كما فعلت الولايات المتحدة عندما استقرت عندها اللغة الانجليزية ، ترفدها غيرها من اللغات ، وحياة ما ألفتها اللغة فى وطنها الام ·

يجول فى ذهنك هذا حين تقرأ قصص ايموس تتوالا النيجيرى والشعر المعاصر من هايتى والمارتنيك ، ولم يكن مغاليا ثامبا حين كتب يقدم لمختاراته من كتابات الافريقيين ، وهو جدير بأن يعرف : « هنا يخلق الافريقيون لغة خاصة بهم ، يخرجونها من اللغة الانجليزية : لغة تفكر بطريقة فاعلة ، تقفز مفرداتها قفزاً أمام وخلف على أقدام صغيرة خفيفة الوطء ، سريعة ، فحلة ، أرضية ثرثارة · »وأرجو ان تحمل لك النماذج التى أسوقها هنا بين يدى أدلك بها على حيوية الزنجية وتشعب ما تعالج من شئون ، هذا المعنى الذى يجىء فى البال عن اللغة الزنجية ، لا من الكلمات المفردة فهذا عسير فى التعريب ، لغة لا صلة بينها وبين الاصل ، ولكن فى الصور والاخيلة ، يقطعها الفنان من طبيعة لا يراها غير حية ، من الغاب والنبات والدفء ، وكل ما يجىء فى بالك من هذه الصور التى تتميز بها القارة السوداء

ولن تجد فى أى شعر مقروء تعرفه سحراً كهذا السحر الذى يقوم أول ما يقوم على شىء من التصدع فى الاجزاء والصورة المفردة بعض الاحايين ، وعلى شىء من السخف الظاهر لا الحقيقى · كل حرف عند شعراء الزنجية رمز لفكرة لا يسميها · انه يفترض وراء هذا العالم المتشابك

المرئى ، عوالم أخرى غير مرئية تجاهد لتكون معنا ، وتثبت وجودها ، والحرف فى يد الشاعر كالعصا فى يد الساحر ، تثير في الذهن صورة ما تسميه ، وتثير فيها رؤى القوى الكامنة فيما تسميه ، ولا يضير الشاعر ، وهو ساحر فى الاصل ، الا تكون للكلمة أو الصورة أو الخيال وجود فى الحقائق الكونية • انه يخلقها ـ يخلق الحقيقة وان لم تكن هناك ، وذلك بأن يلفظها ويكتبها • انه قادر على خلق حقيقة جديدة ما كانت لتكون لولا سحره والحرف ولقسس قبيلة اليوربا وهى قبيلة لها شعرها وتراثها القديم لعالجهما الان شبابه فى صحفه ومجلاته بلغته ـ عقيدة كانوا يبشرون بها على أيامهم ، ولم يرفضها المحدثون من أبنائهم ، وهى أن « كل ما نستطيع أن نسميه باسمه فهو موجود » • ولعلك ادركت معى بعد هذا الذى قلت ان شعراء الزنجية حين يدعون لانفسهم أنهم يستحضرون القابل بشعرهم الحاضر يدعونه على أساس من المنطق الذى املته عليهم الاكتشافات الحديثة فى كنه الحضارة الافريقية والثقافة الزنجية

كل نظام سياسى واجتماعى ينكر على شعب من الشعوب حقه فى تقرير مصيره ، يخنق القوى المبدعة فى ذلك الشعب •• من هنا انطلقت الزنجية ، فى البحث عن موضوعها الذى تريد لتكرس له حياتها الفتية .

شرعت كما رأيت ، بمعرفة الماضى ، الذى كان افريقيا ، ومشت منه لطرائق تفكيرها تعيه وتفهمه ، وأتت من بعد الى لغة ، ما كان بد من أن تكون الفرنسية .

حورتها لتتلاءم ورسالتها الجديدة ، وكان طبيعيا أن تسير فى حنق وغضب شديدين نحو « وليمة الكون » تجد عندها مقعدا وقد وقفت حوله دهرا تخدم ولا تسأل . ألقى فى روعه انه غير جدير بالجلوس ، جدير

بالوقوف . هكذا وهم لأن الانسان الابيض أقنعه بأن « الافريقي كتلة من الشمع اللدن ، ستكيفها أصابع الرجل الأبيض ، تصبها فى الشكل الذى يرتضيه » وبعد اربعمائة عام من الاحتكاك بحضـــارة أوربا ، لم يجد مكانا غير هذا الذى يقف فيه ، وما من له أن يسائل لأنه « كان يتبع خطاه فى ذلة » وان كان يغنى فى سره يسخر :

انا الاخ الاسود
وهم يبعثون بى هناك
آكل فى المطبخ
كى لا اكون بينهم
ان أتى الرفاق ، رفاق البيض ،
لـكنى أضحك الآن
وآكل فى نهم
اقوى من الايام

وحقا قوى مع الايام ، ما وهنت عضلاته ولا روحه ، وجاءت هذه الحركة الشاملة المحيطة لتعبر عن هـذه القوة ، تصف هذه الاكتاف من ناحية ، ولتوقظ النائم تدفعه من ناحية أخرى ، التقت بعض السبيل بحركات أوربية ، وأنجزت أكثر مما خرجت بادىء الامر لتنجز ، عاشت واشتـــد ســـاعدها ثلاثون عاما الآن ، ونمت واتخذت وجهات جـــديدة ، وفلسفات تتفق والحال الذى يعيشها الافريقى الزنجى . لم تعد تدمر كالنار كما فعلت أيامها الاولى . لـكنك سترى شيئا من هذا الجديد فى الزنجيـة حين نتحدث من حاضرها بعـــد قليل . الذى نريد أن نؤكده هنا هو أن الحركة ولدت ومعها عناصر بقائها ، وأقنعت الذين خشـوا عليها أن

تكون موقوتة بظروفها التي خلقتها ، انها ليست كذلك . تساءل سارتر ، وسيعرف له تاريخ النقد الاوربى انه رعا هذه الحركة وهي وليدة يزور عنها غيره ، تساءل عن امرها حين يتخذ الزنجي مكانه فى « وليمة الكون » او يشرف هذا التعس الذى يعيشه على النهاية ، ولعل سيزار كان يخشى خشية هذا الفنان العظيم ، فقد كتب منذ زمن بعيد يقول ان الزنجية التى يرسى قواعدها حركة لن تموت ، يملكها الزنجي وهي في تكوينه ، ان خذلها خذل ذاته ، فغلبتها من غلبته ، وانحدارها من انحداره ، وهي متحركة غير قارة ، لأن الزنجي نفسه كذلك ، غير جامد :

زنجيتي ليست صخرة ، صماء
اقذف به وجه النهار الصاخب ،
وليست غشاء من الماء اسن
فوق عين الارض مائت ،
زنجيتي ليست برجا
ولا كتدرائية
تغوص فى الأرض نحو
لحمها الاحمر
تموج في السماء تعلو
لحمها المحروق ،
تخترق كل ما انبطح
بطيئا غير قادر
لأنها صبورة ومستقيمة

ان لم انقل لك في هذه الابيات معالم الزنجية التى ارادت هى أن تنقلها لك فالعيب عيبى . هذه لغة ولا كاللغات واخيلة ما تخطر الا لافريقى زنجيته حياته .

انها عند سيزار فعلة وصيرورة ، يراها تخترق الارض وتعلو للسماء ، تعمل في صبر وعناء ، ليعود للافريقى مكانه . لقد تعبده الرجل الابيض ، ولن يحفل به الآن وبمنطقه الذى ضلله ، سيحمل لواء هـذه الزنجية ، وهي ليست مقيمة فى الارض اقامة البرج أوالكتدرائية حركة عنيفة ، تعجز كلماتها عن ثقل معانيها كما قال سارتر ..

واخشى‌ان اكون القيت فى روعك ان الزنجية طرافتها في أسلوبها الشعرى ، وفحواها لا يســتأهل الدرس ، مضمونها مما الف الشعراء والقارئون منذ كان شعر وكانت قراءة . ما قصدت لهـذا ، وأرجو أن تكون النماذج التى رأيت الآن ، قـد أوضحت لك أنها فى جوهرها ليست أسلوبا فحسب ، انها اتجاه فى الحياة ومنحى فى الفن ، التطبيق العملى للفكرة الدائمة التى تقول بأن خير ما ينتجه الفنان هـو ما كان ملتصقا بـه وبتراثه . كانت الزنجية بدء مسار فى رحلة لا نهاية لآفاقها العدة . كانت التحرير لنفس افريقيا الحبيسة كانت اعترافا بافريقيا ، ولم تعد معها أوربا المثال فى كل شيء . صار نهجا بعدها ان يكتب الشعراء شعرا من ضمير افريقيا ، وأن يكتبوه بأخيلة من هنـاك .

كانت بعثا استهوى الافئدة ، وعادت معها الثقـافة الزنجية مكانها القديم ، فصارت الوحى والالهام ، وقد استخف بها حتى أهلوها حينـا من الدهر . عادت للافريقى كرامته مع هذا الـكشف الجديد لثقافته ، ولما يميزه ويميزها عن غيرها من الثقافات وغيره من الناس ، فى كل شان من شئون الفكر والحياة ..

سعت الزنجية لتبين للافريقيين والاوربيين معا ان

الشعر يمكن له أن ينبع من قلب القارة ، وفى أسلوبها هى لا أسلوب غيرها من القارات ، ومضت فترة طويلة انقضت منذ أعوام بمقط لم يعد لشعر غيره صوت أو مكان ، لا فى أفريقيا وحدها التى تكتبه وبلاد الزنوج غيرها ، بل فى أوربا . شرع الناس يسمعون صوت افريقيا الجديد ، منبعثا من ماضيه مزهوا به ، مغاليا بعض الاحايين ، لا يلتفت يسمع ما يقال عن هذه القارة التى يريد بعثها ، وقد قيل كثير . لم يعد بعد هذه الحركة عارا أن ينتمى المثقفون لافريقيا ، وكانوا يعتذرون عن جلدهم ودينهم وثقافتهم ، وجزع فى هذه الفترة سارتر ، وهو الحادب العاطف عليها ، أن تكون الحركة « تمييزا عنصريا ضد التمييز العنصرى » ، ولم يبعد عن الحق فى وصفه الزنجية هكذا ، وفى جزعه عليها أيامها الاول . لن تجادله ان قرأت ولو قليلا مما كان يكتب الشعراء حينذاك ، اقرأ معى ان كنت لم تفعل مقطعا من قصيدة شاعر من غانا اسمه ر.ج.ا رماتو ، يصف الهه كما يتراءى لعينه ، وقد أصابها غير قليل من الحول ، لفرط ما ثار وحقد وكره وضاق :

الهنا اسود
سواده من ظلام الخلود
شفاهه غليظة ذات شبق
شعره مجعد ، عيونه مذابه
مذابة فى مائها سمراء ..
هذا هو الجمال حقا أن طلبته
لاننا فى ظله خلقنا
ونحن فوق الارض ظله
الهنا اسود

وفى « جنة الزنجي » تغنى « ملائكة سود سواد حبر الهند ، ويرتل معهم قديسون سوادهم أكلح » : « لقد عناه الرجل الابيض أيما عناء وانطقه بما يدين به نفسه يوم يفتح فاه يتكلم ، كما يقول سارتر : « يتعلم الزنجي أن يقول ابيض كالثلج حين يشير للبراءة ، ويصف النظرة التي لا ترضيه فيقول : أنها سوداء ، ويصف الروح يقول : انها سوداء أن كانت شريرة ، والفعلة سوداء أن كانت قبيحة . يدين نفسه ، يتهمها أول ما يفتح فاه » يربط السواد بكل مرذول كريه ، لم يكن عجبا أذن أن يقلب الافريقي رأسا على عقب ، كل الذى رسخ فى الاذهان ، ومنها ذهنه قبل أن يفيق ، يحتضن هذا السواد ، يتغنى به رمزا لكل جميل ، يهجو البياض ، رمز السلب والنهب والاستعلاء والشحوب المريض • وأتيح للرئيس الشاعر سنغور فى هذا الصدد ما لم يتح لأحد غيره ، ولعلى محق أن قررت ان « المرأة السوداء » قصيدة فى القمة شعرا وأداء ، لن يكسفها أن يقيسها ناقد بأقسى ما يقاس به شعر الكبار ، والقطعة التى أعربها هنا لا يميزها عن غيرها شيء الا انى اراني أقل عجزا على ادائها هى من اداء غيرها من القطع الرائعة فى القصيدة :

أيتها العارية ، أيتها السوداء
ملتحفة بلونك الذى هو الحياة
فى ظل هذا الجمال نموت
أرعى قواما هو الحسن
وحلاوة يديك أيتها العارية السوداء
أعمتنى ،
هناك فى قلب الصيف ، وسط النهار اللافح

اجدني عند أرضي الموعودة ،
وجمالك ينفذ لقلبي يصعقه ،
كما يصعق الرعد الصقور

شعر سذاجته الأسرة تعيد للذهن أغاني نشيد الانشاد الذى لسليمان ، شاعر لن تنساه وانت تقرأ هذا الشعر الافريقى القديم ، وتطوف بمخيلتك « أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم » الخ ما في النشيد ، من شعر نمته حياة لا تختلف كثيرا عن الحياة الافريقية التي يجهد لاستحضارها شعراء الزنجية :

وجوهنا جميلة جمال القوة الحقيقية
الفعالة الموجودة فى السلبية ..

***

كانت فترة هائجة ولا ريب فى تطور شعر الزنجية ، فترة لا ترى فى البياض محمدة وكانت كلها محامد من قبل ، ولا فى الرجل الابيض الا سفاكا يعيش لبطنه وكان من قبل محل اعجابه .. كان حقا التمييز ضد التمييز ، لم يصارع الافريقي ليكون كفئا لغيره فى هذه المرحلة ، ولكن ليظهر محاسنه وقد اخفاها الهوى والجهل ، وليبين مقابح غزاته حكامه ، وقد أخفاها السلطان والزيف ، يقول دافيد ديوب ، شاعر السنغال يصف اللقاء الاول بين الرجلين : الاسود ، والابيض ويصوره أبشع تصوير :

قتل الرجل الابيض فى المبدا أبى
وانحنى من ثم فوق الوالدة
كان مختالا فخورا والدى
ذل يا ويحه
هتك الرجل الابيض عرضه

ويلها كانت جميلة
امي . . .
حرق الرجل الابيض اخي
تحت شمس النهار المحرقة
كان اقوى ما يكون الاقوياء
يده حمراء من فرط الدم الاسود فيها
وبقيت . . .
قال فى صوت الغزاة الفاتحين :
تعرفه ؟ . . .
« هاى ، بوى ، هات كرسيا ومشروبا وفوطه »

***

يتصل بهذا الشعر الغاضب الحاقد نموذج آخر يعيد للذهنى أحيانا شعر حافظ ابراهيم فى دنشواى ، ولا اعرف اسما لهذا النوع من الشعر الا شعر الحسرة :

تعذب أيها الزنجى الضعيف
هذه دارك اقوت ،
وسعار الجوع فى طفلك الهب ..
وتعذب ايها الزنجى الضعيف
انت فى جلدك أسود
كسواد المضض

هذا دافيد ديوب من السنغال ، وهو يعيد للذهنى حافظا يقول :

وابتغوا صيدكم وجوبوا البلاد
واذا أعوزتكم ذات طوق بين
تلك الربى فصيدوا العبادا

***

أمور تشير جميعها الى أن فرنسية الزنجى لم تنجح

النجاح الذى أرادته فرنسا طول الاعوام ، « ساقنا الفرنسيون سوقا للبحث عن روح الزنجيـــة ، حين أرادوا قسرنا على الذوبان فى فرنسا » كما قال الرئيس الشاعر سنغور فى اكسفورد قبل قليل : « وتعمقت الخيبة فينا تعمقا ، دفع الشـــاعر سيزار الى حافة الجنون ، وهو شاعر من جزر الهند الغربية ، عادت روحه لافريقيا ، مصدرها الاول . اتخذ الافريقيون الزنوج كل الذى أعطته فرنسا من رياضيـــات وعلوم ولغات ، وذاب جناح من عقلها فى هذا الذى أخذته ،

فما كان عسيرا ذلك ، أما جلدها الاسود فلم تكن هناك سبيل لنزعه ، وكذا روحها السوداء بقيت كما كانت فى البدء عند الخليقة ، وذكرت الرجل الابيض وفعلته يوم جاء أرضه ، وكان يوما أسود ، جاء يحمل فى يد برجـــلا وفى الاخرى مزولة ، ابيض الجلـــد ، رقيق الشفاه ، سفنه الحربية تقذف الصواعق القواتل .

وحزن على نفسه وتحسر واحس بهذا الحزن وهـذه الحسرة اينما كان ، فى افريقيا ، وفى جزر الهند ، وفى هايتى ، كل مكان ذهب به النخاسون ، وكلما ابعـد الزنجى عن قارته امه عمق حزنه ، ولم أقرا فى شعر الفجيعة هذا ما قرأته لدماس ، شاعر غينا الفرنســية ، واحد من رواد هذه الحركة أيامها الاول ، واحـــد ممن اشرفوا على الجنون من فرط الســـخط والســجن الروحى :

كل أيامى الحواضر
تنظر فى قلب امسها
جاحظة العينين لا شىء فيهما
هذا الضغن والخزى

واحيا غبيا كما كنت منذ جئت
جثة من بلاها فحمت
اظفار أقدامى التوت
لحمى المائت والوشم عليه
الحديد الاحمر
واذرعى مهشمة
هشمها السوط الجموح

وسيزار رفيقه فى الوطن الغريب يصف أخوانه الذين جاءوا الجزر أرقاء من قديم ، يقول :

يعرفون فى ركنه الاخير الابعد
بلادهم الواطئة العرجاء
بلاد الالم ..

وكان طبيعيا ـ كما قلت أن يلتفت القوم للوراء يبحثون عن ماض تقف عليه أقدامهم هذه الدامية ، لم يكونوا ليقتنعوا بجامعة اللون وحدها ، خرجوا ـ وقد ملأ القنوط نفوسهم ـ يبحثون عن روح مشتركة ، وأعانتهم أوربا على ذلك ، فقد كان فريق من علماء وصف الانسان ، وأجناسه العدة ، وآخر من علماء قبل التاريخ بصدد ثورة ثقافية لا فى فرنسا وحدها بل فى غيرها من أقطار أوربا وفى بريطانيا . كان هؤلاء قد عكفوا بجد على الدراسات الافريقية والآسيوية ، وشرعوا يهدمون القلاع الجاهلة أحيانا ، المغرضة أحيانا ، التى أقامها أشباه العلماء . جاء هؤلاء يقولون بوحدة الانسان أبيضه وأسوده ، ويقيمون قواعد جديدة لعلم أصول السلالات البشرية أعانهم على اكتشافها ما بلغت الآلات من اتقان ، وما بلغ الاتجاه العلمى الصرف من كفاءات جديدة . وليس من عزمنا هنا الحديث عن

الذى اكتشفه هؤلاء ، ولـكننا نوجز ما انطبع فى ذهن طلابهم الافريقيين ، ان قلنـــا ان الثورة التى احدثها العصر الحجرى الجديد فى حياة الانسان على الارض ، لا يمكن لعـــالم ان يفهم دقائقهــــا ، ان لم يدرس الحضارة الافريقية التى ازدهرت فى اشطار عدة من القارة زمان العصر الحجرى المتوسط ، تمهد لهـــذه الثورة التى حوت القارة والعالم ، وكان من ســعد الافريقيين الزنوج ، ان دخل الميدان بعـد العلمـاء مفكرون وأدباء وفنانون يلهبون الخيـال العام ، بمـا يكتبون عن هذا الماضى الافريقى ، الذى الح على الحياة وان قدم به العهد تحت اقدام الغزاة . تعلم الشباب الافريقى فى اكسفورد وفى السوربون وفى معاهد العلم الاخرى ، ان هـذه الجذور أبقت على الايام حيويتها ، وانها ستنتج يوما من الايام فروعا جـديدة خضراء ، وكثر الحديث بعدها عن افريقيا الحارة القلب ، ذات المراعى والزرع والعشب ، موسيقى القبائل ، ورقص العذارى ، وقصص الاقدمين فى الاكواخ حول نيرانهم ، وطافت فى مخيلة الشباب رؤى عن فردوسهم المفقود ، صوروها فى شعرهم أحزن تصوير :

كانت الشمس على كوخى مضيئة

وحريمى فاتنات لدن

باسقات كالنخيل

يتهادين مع الريح .

وصغارى لا يهابون يعومون

فوق شلالات نهر ذى هياج وشغب

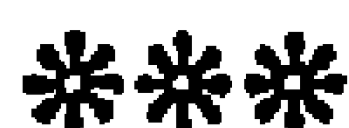
وقواربى تطارد التمساح تصرعه ،

كصغارى لا تخاف .

والقمر الحنون الام يرعى رقصنا
صخب الالحان من توم تومنا ٠
توم توم الفرحة والبهجة
حول نيران الحرية
سعدنا لم يكترث ٠
وذات يوم حل صمت ٠
وبدا شعاع الشمس يخفت
ثم أطفىء
وخبا كل حجى كان فى كوخى
وأفرغ ٠
سحقت كل زوجاتي شفاههن الموشمة
فوق أفواه الغزاة ذوى الشفاه الناحلة
ذوى العيون الصلبة ٠
وصغارى هجروا العرى الحالم
واستعاضوا عنه حلل الحديد والدم ٠
مات صوتك
مزقت قلبى اصفاد العبودية ٠
تو تو مات الليل ،
نامت توم تومات الجدود ٠
راحت ٠

سترى فى هـــذا الشعر ــ ان نجحت فى نقل جوه اليك وروحه ــ شعر الرافضـــة ، الذين أبوا الرجل الابيض يغزو حيـــاته الآمنـــة الوادعة وعريه المحب للسلام ، شعر الذين امسكوا بتلابيب ماض زينوا كل شيء فيه ، ورأوا السعادة الغامرة التى لا يعنيها شيء فى كل ركن من أركانها الوضيئة البعيدة عن الغل والحقد والدم ، وشعر الزنجية فيه فصل طويل عريض يمثل

هذا البحث المحموم عن ماض بعيد للزنوج كبرياءهم التي داسها تجار الرقيق فى البدء والمستعمرون من بعد ، وهو شعر ـ كما رأيت من هذا النموذج ـ كله زخم واندفاع ، شيئان نجحت الزنجية فى اثباتهما فى الاذهان حتى لم تعد صورة غيرها تطوف فى الذهن ان ذكر الافريقى ، لأنه يصدر فى اعماله كلها ، عن حنين الى الارض ، الى الطبيعة الطليقة الجامحة لا يؤودها ما يؤود غيرهم من البشر ، ولا يزعها ما الف غيرهم من وازع . ابناء الحياة « يلعبون لعبتها » فى غير ما حرج أو قيد ..



ولعلى لا اعدو الحقائق ان قلت ان هذا الالتصاق بالارض دون حجاب بينها وبين الانسان ، الذوبان فى الطبيعة ، ولا فصم بينها وبينه ، الانسان ناحية من نواحي القوى العدة ، شطر فى قوى الحياة كلها لا تابع لهما « لحم من لحم هذا الكون ، تنفتح مسامه لكل نسمة فيه ونامة » هذه النظرة للحياة والانسان هى التى ميزت الافريقى الزنجى بفحولة تثير حسد الرجل الابيض ، وتثير لعابه بعض الاحايين ، كما تدغدغ كبرياء الزنجى حين يفيق للحقيقة ، يسمع ذكر الناس لها . وأقول حين يفيق لأن الزنجى فى غابه أو حقله او كوخه ، يعيش تقاليده وعاداته القديمة لا يعنيه من أمرها شىء ، لا يقابلها بغيرها ، ولا يجد فيها نقطة حديث ، فهى عنده كالتنفس ، شىء يقع طالما كان حيا ، ولا يسائل هو كيف يقع ، لا يكترث . وهكذا الزنجى فى باريس أو لندن ، يجد نفسه ذكرا فحلا مكان الحديث ، بل ويقرا أن كان قارئا ، ما يثير زهوه ،

فكاثر الرجل الابيض بانه ابن الطبيعة لا الآلة والصناعة حين قرر سارتر في « أورفيوس الاسود » : « ويظل الاسود الذكر الأكبر على الارض ، وجوده - صبر النبات في الارض يلقى جذوره ، عمله الاول هو أن يعيد كل عام ويبدىء الجماع المقدس » لا زال رجلا انسانا يستجيب للأوليات في الطبيعة ، ما خدرت جسمه وروحه الآلة والحضارة الغربية العجلة ، وما كانت روحا عارمة على أية حال ، ما عرفت ما عرفته الحضارات الافريقية من تقديس للذكورة ، معطية الحياة على الارض ، تقديسا رآه المنقبون في الصخور التي نحتت على هيئة عضو الذكر في الانسان ، ويراه علماء وصف الانسان ، مرسوما على هيئة تخالها أول الامر صليبا على جباه بعض النساء في القارة ، عادة لا يزال يمارسها قوم عديدون ..

الفحولة اذن نقطة تميز بها الافريقي الزنجي ، وترى آثار مكاثرتهم بها في كثير من شعر الزنجية ، وان كنت لا ترى عربدة جان جنية وصراخه ، على النقيض تراه حييا خجولا يشير ولا يذكر ، علامة الاطمئنان والهدوء النفسي وقل أن ترى الفحش والمكابرة ، ولعل خير نموذج لهذا الشعر المبين الموحي ، المقاطع التي تتناول هذا الجانب الصاخب عند الزنجي في قصيدة « المرأة السوداء » للشاعر الرئيس سنغور ، يقول :

أوهو ! ! كنفو ! ! مسترخية على سريرها

من صنع غاباتها

سيدة افريقيا الاسيرة

دمى الجبال ترفع عاليا راياتها

جبال شكل الذكر

انى هنا ارصدها
واعرف انها امراة
عرفتها بوجهى ، عرفتها بلسانى
اعرف انك امراة
عرفت عن طريق بطنى

ومقطع آخر ليتنى عرفت كيف ادير كلماته على النحو الذى اداره سنغور فى الاصل ، اذن لرايت معى الابانة التى لا تثرثر :

والآن ساركب مرة اخرى بطون الرابية
اغوص فى نعومتها
وارقى لافخاذ النهار الساعرة

ولا يطمع كل شاعر أن يصل الى هذا الذى يصله الرئيس الشاعر ، وهو يتطلق عن درس عميق للحضارة الافريقية على ضوء دراساته الاوربية ، ويعالج دراساته هذه بلغة ملك كلماتها امتلاكا وظلالها المدة فى اطراف أصابعه كما يعبرون . لا يعرف الشعر كثيرين مثله ، ممن أتوا الشعر عن حاجة قاصمة لقول شيء يريد أن يقوله ، وحساسية ناعمة لذلك الشيء ، تفور وتهدأ وفق وحى الساعة ، وقدرة على التعبير أتاحت له ما لم يتح لزنجي قبله فى باريس ، التى لا تقنع بما يقنع الناس ، وتطمح للنجوم ، أجلسته استاذا فى جامعاتها يعلم أبناءها ، يرد لهم بضاعتهم ويزيدها من عمله الثرى وحسه الخصب . استطردت لهذا اقول ان شعره عن فحولة الزنجي لا يصخب ولا يريد أن يعير ، وشعر غيره يطول ليغيظ ، لا ليمتع أو يثير ، يقول فاى تيرولين من جزر الهند الغربية ، وكأنه يصيح من مئذنة يقول انظروا جاء الفحل ، جاء

الرجل المذكر . لكنه شعر حقيق باسمه :

ثدياك تلمعان فى سآتانها الاسود
مليئة تنادى ،
هذه البسمة البيضاء
عينـــــاك ،

فى ظلمة الوجه ، تلوح
تهيج جوف الليل أعماقى
تثير أنغاما بها وقر ،
واخوانى بعدت نواهم
على بعد سحيق

فى قينى
سود عرايا
ينتشين كما يردن ،
يهجن الليل
أهوائى واغوارى

غسقا كثيفا لن تراه وان جهدت
سواده منى ومن ليلى ،
وانا الذى أحيا مع الاسلاف
أرعى روحهم سوداء تغفى
ثم تصحو ليلنا هذا الشبق
وتعانى ، وتصارع ..
قبضة من حقوك المنشور
لا يقوى عليه كل قادر

ولكن القارىء العربى لن يجد هنا ـ وهى من اهتك ما كتب شعراء الزنجية ـ ما يرفع له أهدابه بعجب ، ففى تراثه الشعرى ما هو أبين من هذا وأوضح ، عند امرىء القيس والوضاح وعمر ـ حين كانت الحيـاة

نفسها قوية فحلة ، لا يخجلها ان تعيش مليئة سكرى بما على الارض من لــذة والم ، وما كذلك القــارىء الغربى الذى الف الصــوفية فى الحب الا لدى الذين اتخذوا الحب صنــاعة ، بعد ان ذهبت الحيــوية الاغريقية وانطمست معــــالم العصر الوســيط وزمن النهضة ، وحلت حياة الآلة بقوتها التى استعاضت عن الحيوية بمدنية اساسها التادب والتانق فى الطبقــات الثرية والــكدح والعرق فى غيرها من النــاس . هؤلاء فى قبضة التعس والعرق ، يعملـــون يجهدون لا يجد واحدهم الا اليسير من الفراغ يريح فيه جسده المنهوك ليشرع فى الصباح دورة الــكسب للعيش ، واولئك فى قبضــــة الترف والحديث المؤنق الناعم عن الصيـــد واللباس ، لا يذكرون جانبهم الحيوانى الا وراء أستار غليظة يستحون منه ، ويموت هذا الجانب من عيشـــه الطويل فى الظل ، لا يرى الشمس والنور . وما كذلك الزنجى الذى يطلق للحيوان فيه كل عنان ، لايستحى منه ، يحيا مع الشمس والنور يقوى ويشتد ، يراه الغربى تتلمظ شفاهه حسرة على ما سلم ، وهو لا يدرك ما يفعل ..

على ان الزنجى المحدث قد تعرض لمـــا تعرض له الاوربى ، ويخشى قادة فكره ان يفقد هــذا الالتصاق بأرضـه ، وهذا الحيوان فيه ، وترى هذه الخشية فى كثير مما يكتبون ، ولعل سيزار ، وهو ما رأيت تعلقا بالقديم فى افريقيا التى كانت موطن اسلافه وعاداته ، كان يقصد لشىء من هذا ، حين قيل له يوما من الايام ان يكبح من جماح شعره فيكتب شيئا منه فى شــكل السوناتا الغربية ، ليفهم عنه غير الــذين وقفوا بعض

حياتهم على درس افريقيا القديمة التي تعيش بيننا الآن في أركانها القصية . قال يجيب : « صـدقوني يا رفاق ، ودعونا نضرب التوم توم القديم الطيب » . وسنفور أبين وأفصـح كعادته حين يرتاع من حاضره وينظر للوراء يقول على لسان بطله المتوفى شيكا : « من التوم توم هاتوا ، واطلبوا شمس عالم جديد »..

***

ومهما كان من أمر هذا الجزع فان سنفور الرئيس وغيره ممن عاشوا الحضارة الاوربية ، ونشـأوا على فنون الزنوج في أمريكا وفي جزر الهند وفي هايتي ، لم يجدوا في الذي درسوه وأحسوه شيئا لا يتفق وحب الافريقي للحياة هذا الحب العارم وعشقه لكل ملموس منه محظور . عكف الزنجيون الاوائل على رومانسـية الاشجان (البلوز) وصوفية الروحانيات (اسبرتشوالزم) وخرجوا منهمـا بمفهـوم أوجزه الشـاعر الرئيس بقوله : انهم يريدون ليبدعوا فيما يكتبون من شعر ونثر « دنيا لا تختلط فيها المتعة بالخطيئة » عالم يدرك الفرق بينهما والحدود ، لا ينسى فيه الافـريقي الزنجي انه من قوم يقولون :

نحن الرجال الراقصون ولا حوب ،
أقدامنا تقوى مع الدفء
وتفلظ تحتنا الارض
فلا نعنى ولا نضعف ،
نحن الرجال الراقصون

ويذهب بعيدا سيزار في حساسيته الزنجية ، ويعيد للذهني مثلنا الدارج من « التركي ولا المتورك » مثـل كان يتندر به العامة ، حين يرون رسـل « الترك »

يلحفون في تنفيذ ما أمر به الاسياد الحافا لا يرونه في الاسياد انفسهم أهل الحل والعقد . كانت وطأة الاسياد اخف عليهم من وطأة الرسل . وسيزار الذى ما رأى افريقيا الا بعد أن تقدمت به الحياة ، هو الذى تعلق بها تعلقا ، انكر معه كل شيء أحبه وعاش له من قبل : وسائل العقل الاوربى ، وطرائقه فى التفكير ، وأخيلة الشعراء والفنانين ومصادر الهامهم ، قال يتبرأ من أوربا وما تمثله فى ذهنه : « آه ، انا اسمع من شقوق جمجمتى . انه الطوفان الاسود يهدر ويرتفع يرتفع ، ينبع من اعماق هذه الارض ، انا اسمع الامواج فى خريرها ، واشم المستنقعات فى رائحة الحيوان ، وزبد العواصف اراها فى الاقدام العارية . اسمع اسمع معى ! هذه أسراب من الاقدام تتجدد كل وقت ، تفرغ فى جبالها » . نثر عسير يقتضيك مشقة فى تصور أهدافه ومعانيه ، كما اقتضاك شعره ، ولكنك لن تخطىء جملة ما يريد أن يحمله اليك من الصور الافريقية الخالصة ، ترى وراءها ان انعمت النظر الزنجى الجديد يخرج هادرا صاخبا من سجنه يقتحم اسواره ، يطل على العالم يراه بعينه لا بعين سجانه . والشاعر ــ فى مفهوم سيزار ــ رجل يخرب ليبنى اساسا حقيقيا بالذات ، وقوة جديدة على الرؤية التى لا تحجبها نعم الانتعاش الاقتصادى أو التحرر السياسى . كلاهما عند الزنجيين فراغ ، يظل آليا ، ان لم ترفدهما معان داخلية ، فالانسان لا يعيش بالخبز وحده ، وما احتقر الاوربى غيره لاتقانه فنون الآلة فحسب ، لقد صرعه بهذه الفنون ، ولكنه فرض عليه ثقافته ، وما كانت خيرا من ثقافة الزنجى ، بل

مختلفة ، كما فرض عليه فلسفاته ، وما كان الزنجى خلوا منها • فى كلمة واحدة ، حجب عقله وقلبه عن النور ، وعلى الافريقى أن يستعيد كل الذى فقد ، حريته العاطفية والفكرية ، مع حرياته الاخرى ، فلا معنى لهذه ان خلت من تلك ..

كان فى صدر الزنجى اذن احنه واستثار دفينها ان استطاع التعبير عنها ، مستعينا بوسائل أهل الشعر والفكر فى أوربا عند جدة الامر ، مبدعا وسائله هو

عندما قفل الى ذلك الافق الذى عرف من بعد بالزنجية ، واستقر به المقام هناك لا مرجع عنه ، ولا مكان للرؤية غيره . عد طابورا خامسا من اتجه غير تلكم الجهة ، ولم يعد من حق أحد بعدها أن يحيا غير هذه الزنجية أو يتحدث بلغة غير لغتها ..

للشعراء والكتاب أن يطوفوا فى مجالاتها ، يجولون ما شاء لهم خيالهم ان يفعلوا ، وما أسعفهم البيان ، اما الخروج عن الرقعة أو عليها فكان زندقة ، لانه خروج على الذى أوقفت نفسها عليه الزنجية ، لا نمطا فى الشعر وحده ، أو فى النثر ، أو فى الفلسفة ، بل نمطا للحياة كاملا . الدين لايريدونه ارادة ، ويعملون له ، قوم من الناس خبيث قاعد :

مختلف ، لا يكفيهم انهم يحسبون ذواتهم
مسخا من ظل ابليس ، لا ظل ربهم على الارض ،
سماوات بعيدة عليهم لا يعرجون آفاقها
لانهم زنج ، مثلهم مثل الموظف الصغير
فى الديوان ،
يرقب الايام بعدها تحمل فى طياتها الترفيع
تسوق له الفلوس ..

قوم خسيس اسلم نفسه
يدخل مطمورة من هواها
وأحلام عيشها النكد ..

يعجزون عن الغلبة ، فيخدعون ،
داب الصغير ذى العنة ..

واسمو القياد لينو العريكة ..
انظرى اوربا انا اعرف ما تعرفين
من أداء مفترض الآلاء ،
واعرف ان أقدم فائق الاحترام
لا اختلف عنكم فى الحقيقة

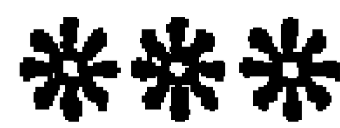
ولا يرو عنكم سواد جلدى ، فالشمس
هى السبب وهى احرقته
كلهم حمار وحش هؤلاء
فيهم الزنجى عبد الراصدين ،
فيهم الزنجى جندى الرقباء ،

حمير وحش يستحون من شريطهم
يرجون لو هزوا جلودهم تساقط
الشرائط تهوى الى
ندى لبن ،
واصيح لا أعنى بهم : « هرا هرا »
جسدى يموت كل لحظة ،
اقول لا اعنى بهم هرا ، هرا ..
الزنجية القديمة تهوى قدما
الى الفناء
هرا ، هرا

وهكذا يريد بناة الزنجية والقائمون عليها اليوم الا تكون لحركة أخرى غير حركتهم حياة ، لانها هى حركة

البعث الافريقي تشمل كل شـأن من شئون العيش والفكر وتقدر على التغير مع الظروف « ليست صخرة » ومن العدل ان نقول هنا انهم فى هذا لا يغالون فزنجية الثـلاثينيات ـ بحقدها وغضبها وثورتها على كل شيء قد استحالت زنجية أخرى اليوم . أبقت على أسلوبها القديم فى الشكل ، وتحركت مع الايام فى المضمون ، كما سنبين بعد حين ، مؤكدة بذلك أن موقعـة فاصلة فى المعركة قد انتهت ، مهيئة نفسـها لقابل المعارك ، فما

مع الحياة سكون . لم تعد هذه الصورة التى ترسمها القصيدة للزنجى حقيقية فى كل مكان فى القارة ، وان كانت هناك فى كثير من الجيوب ، لأن الاستقلال السياسى الذى ناله كثير من الافريقيين ، لن يخلق الزنجى الكبير فى يوم وليلة ، فقد عاش زمنا طويلا يرقب الاشـارة من غيره ليهرول ، فالسير لم يكن مما يثبت عليه ..



رايت معى ولا شك مما قرات حتى الآن عن الزنجية انها نتاج لاتينى ، فرنسية سدنتها من هناك . ولـكن الحركة اخذت بقلوب فئـة من الشـعراء والـكتاب والمفكرين الذين ربوا فى الاقاليم البريطانية على اللسان الانجليزى ، فاستجابوا لحداء قافلة الزنجيـة واحتضنوا فلسفتها واتجاهاتها ومراميهـا على انها حركة للزنوج فى كل مكان ، ولم يثنهم عن القافلة أن الفجوة اللغوية ، كانت عميقة بين الفريقين ، عمق الفجوة التى يجدها الواحد بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية ، ولم يكن عجيبا ان تلتقى الطريقان عند الزنجية ، وقد باعدت بينهما وسائل الحكم واهـدافه فى كل من البـلدين فرنسا وانجلترا ، ذلك لأن الحركة لا تخاطب عقـل

زنجى بعينه أو عاطفة افريقى بعينه ، كانت تخاطب الاسود أين كان ، كما تخاطبه اليوم ، ولم يكن بين الاسود فى الكنغو او السنغال او غانا فرق فى تجربته الجوهرية مع الابيض ، كانت هناك آصرة الهوان والذل بينهم جميعا لا تقوم الا على قاعدة اللون ، وان اختلفت المناهج بين المستعمرين • كلهم يريد ليملأ بطن الاسود خبزا وعقله فراغا وروحه طاعة ..

ولكن فريقا آخر ابى هذه الزنجية وكل الذى تمثلها وتهدف اليها ورأى فيها دعوة الى الرجوع الى وراء لا دعوة الى البعث والنشور ، وكاد أن يدمغها بالتواطؤ مع الاوربيين الذين يرون فى القارة السوداء حديقة العاديات يأتونها هرب الصقيع فى الشتاء ، يتمتعون بالدفء والحيوان والبشرية شبه ذلك الحيوان ، ويعودون مع الحر الى بلادهم يحملون للذين ما استطاعوا الرحلة صور العرايا ورقص البرابرة حول النار ، والافيال فى مستنقعاتها ، والاسد فى جلاله ، ويحملون مع هذا كله قصصا ما وقع منها شىء الا فى خيالهم الواسع •• صورة لجنة يخافون عليها من يد الحضارة أن تمتد اليها فتحرمهم النعيم الذى يشترونه من وقت لآخر ، والمتعة التى يجدونها فى عطفهم الاجوف على « المتوحش اللطيف » . وينعى المنكرون للزنجية هذا ، ويصرخون فى وجه دعاتها :

لا تحفظ على عادى ومألوف
ارجوك ،
سيأنس به ان فعلت
مؤرخ ابيض اللون
به خيفة ،

خيفة تغريه بالشاذ والاثر

انهم يريدون لافريقيا كل جديد نمته عصر الآلة ، ويخشون أن يلعب دعاء الزنجية لعبه طلاب التسلية من الذين انهكتهم عجلة الحياة الاوربية ، ويريدون لها أن تتصنع وان ترقى رقى أوربا ، ويأخذون على الرجل الابيض انه لم يعطه الا الفتات من حضارته ، وكان أجدر به ان يعطيه كل الذى أتقن وأبدع ، ويعيد لذهنى دنسى أسادبى ، الشاعر النيجيرى الذى أخذت لك عنه ذاك المقطع ، صورة المتنبى يعالج كافور يقول :

وهبت على مقدار كفي زماننا
ونحن على مقدار كفيك نطلب

وذلك حين يتابع قصيدته هذه فيقول فى مقطع آخر يلوم الاوربى على خسته فى عطيته :

أنا لا أجحد العوارف وان كنت
اريد المزيد من طيباتك
كسرة الخبز من يديك قليلة ،

هذه واحدة من مآخذ الناقدين للزنجية ، والاخرى فكرية محضة ، أفصح عنها أستاذ من عبادان (نيجيريا) فى حديث له أجراه مع أحد محررى مجلة « انكاونتر » . قال يتحدث عنها انها « اسطورة » ولم يعترض عليها لأنها كذلك ، فالاساطير تدفع الناس للصراع ضد النفوذ الاجنبى ، لأنها تزين لهم ماضيا من التاريخ يعينهم على الثقة بالنفس ، وتصور لهم مستقبلا زاهيا ، يقوم على الماضى المجيد الذى كان يتخذ المحاربون هذه الاساطير قواعد يهجمون منها على مراكز العدو ، يقولون لأنفسهم انهم أستطاعوا فى فترة من تاريخهم الماضى أن يكونوا شيئا

مذكورا ، وليس هناك ما يمنعهم أن يكونوا كذلك الآن ، ان آلت اليهم الامور من يد الاجنبى . وينتهى الصراع وتؤول أمور الناس لهم ، وتختفى الاســـاطير معها ، مخلفة أحلاما وأمانى على الذين خلفـــوا الاســـــاطير ان يحققوها ، وما فى وسعهم ذلك ، لأن الحقـــائق التى تيسرها الاساطير اعقد كثيرا مما يجيء فى بال العامة ، مستهلـكى الاحاجى والقصص . وعرج الاستاذ على الزنجيين ، فقال : « انهم ذميون ، يقولون ما لايفعلون يخيطون ملابسهم الانيقة فى باريس ، وخير الطعام ما اتاهم من هناك ، وخير الخمور والنساء كذلك . لا تمتع نفوسهم الا بمتع الحضارة الفرنسية ، ثم ياتون افريقيا فلا يعيشون الا فرنسيين ســود . ويدعو بعضهم الى الثقافة الافريقية ، ولـكن قل لى : ارايت فى دار واحد من الدعاة صورة ما ينتج الفنانون الافريقيون المعاصرون او واحدة مما انتج القدماء ؟ . ارايت نحتـــا فى دار واحد من هؤلاء مما أنتجت افريقيا القديمة أو المعاصرة ؟

وليس ظلمـــا ان نقول هنا ان الشـــاعر النيجيرى والاستاذ النيجيرى ، كلاهما يصـــدران عن ثقـــافة سكسونية تجنح الى الجانب العمـلى فى الحياة ، لا تقف كثيرا لدى المجرد الذى هو سحر الثقـــافة اللاتينية ، يريدأن ــ كغيرهمـــا من المفكرين الذين ثقفوا ثقـــافة سكسونية ــ أن يتقن الافريقيـــون شـــئون الادارة والحكم ، وأن ينصرفوا الى الذى ينفع المواطنـــين فى حياتهم اليومية ، من تعاونيات ونقابات ، يســـودها النظام الدقيق ، وتحركها الحريات المدنية الكاملة على النموذج البريطانى ان تاتى ذلك . وما كذلك الافريقى الذى ثقف ثقافة لاتينية .. شئون الفكر والروح عنده

فى المقدمة ، والحياة اليومية العملية فى محل ثان ، ولعل هذا يفسر لنا الرباط الوثيق بين فرنسا وأقاليمها وراء البحار ، رباطا وثيقا يضيـــق به الذين يؤمنون بذلك المفهوم الجديد الذى يدعونه الان ، مفهوم « الشخصية الافريقية » لأن الزنجى فى الاقاليم الفرنسية السابقة ، مسخ من فرنسا فيما يرون ، ويخطىء الواحد منا ان ذهب بعيدا مع هـــذا التيسير ، وحسب ان الثقـــافة الانجليزية ، في صميمها — لا تكترث بالروح والفكر ، وان الثقافة الفرنسية فى صميمها لا تكترث بالحيـــاة العملية . هـــذا ابعد ما يكون عن الحق كما تعرف ، والواقع الذى لن يجادل فيـــــه الكثيرون ، هو أن النفوذ البريطانى فى القارة الافريقية عجز لحد بعيـــد عن أن يصدر هذا الجانب الروحى من حضارته ، وان النفوذ الفرنسي ضغط على جانب واحد أيضـــا من ثقافته . أولئك باختصار مخـــل صنعوا بيروقراطيين ، وهؤلاء صنعوا شعراء ، وكان فى وســـعهم أن يصنعوا مزيجا كالمزيج الذى تصنعه حضارتهم في بلادهم . من كل هذا بالمناسبة ، نريد أن نخلص الى ان فريقا ممن يأخذون على الزنجية رومانسيتها وافريقيتها الجامحة يصدرون عن عقلية عملية ، همومها الاساسية فى التقدم والرقى على الاسس التى وضعتها الحضارة الآلية ، التى يعيشها هذا الشطر من القرن العشرين ، وعدا هـــذا عندهم تعلق بالخيال والمستحيل لا يليق برجال يريدون ليبنوا بلادهم من جديد ..

وهناك فريق ثالث لا يجد نفعا لهذه الحركة ، ولا يفهم لها معنى الآن ، لا يجادل ضدها كما فعل دنسي أسادبي الذى يرى فيها تعويقا لحركة التفرنج ، ولا كما

فعل اقنشى الذى يراها نفاقا فكريا لا يستحق . هذا فريق ثالث يجادل ضدها وهو فى تراب المعركة لا يقدر شيئا لا يعينه اليـــوم ، على كسب هذه المعركة . ترف يتحدث به الخالون ، والزنجية عند هذا الفريق شيء من هذا وأكثره « كلام فى الهواء » يقوله المثقفون ، هواء ساخن من اى جانب أتيته : فى فنـــونه وفحواه ، وفى نفعه كعقيدة محاربة . يمثل هـــذه النظرة غير العاطفة حزقيل مقاليل ، كاتب من جنـــوب افريقيـــا طوح به السفر كل مكان ، وقد شقت عليه الحياة فى بلاده التى رعته بادىء الامر ، وقذفته خارجها حين تمتم يطلب العيش الجميع بين أهليها من سود وملونين وبيض ، وليس يشق عليك وقد عرفت هـــذا عنه أن تفهم حين يقول يرفض الزنجية :

اننا نعاظل فى جنوب افريقيا لنخلق ثقافة للكادحين تمزج على سواء بين القديم والحـــديث . كيف لنا أن ننوح هنا على ثقافتنا التقليدية ، وقد هوت قواعدها الا قليلا منها ، تحت أقدام الغزاة ، ومطارق الصناعات الاوربية ، وما يتطلبـــه الاقتصـــاد الاوربى ، وهوت عمدها لا قليلا مع تيار المهاجرين من حولها ، يســـاقون سوق العبيد لبـلادنا ، يخربون حيـــاة الاسرة عندنا ويخرب تبعا له بناء المجتمع . والقوانين التى نعيش فى ظلها ، هل أبقت لنا ثقافة نتحدث عنها وعادات ؟ انهـــا تنتزع قومنا انتزاعا من أراضيهم واهليهم ليحيوا بعيدا فى المناجم والمزارع يعرقون ويجفون ، كيما يتخم البيض ونتحل . وهـــذا التعس الذى نلقـــاه من المبشرين الرجعيين وغيرهم من معلمينا الخ . لن نثير معركة فى الخلف لنبحث من جديد عن ثقافة تقليدية خالصـــة ،

فى نفوس خمســـة ملايين من غير البيض نزحوا اليوم للمدن وثلاثة ملايين كلهم أجراء على مزارع البيض ، ولن نضيع جهــدنا لنبقى على ثلاثة ملايين منا ظلوا فى أماكن اختارها لهم البيض اختيارا ، نبقى عليهم ثقافة تقليدية . هــذا شــطط فى الخيال ، ان لم يكن نكبة علينا نحن الذين نسعى لهدم البنــاء السياسى القائم الآن .. »

منطق لن يرفضه الا مكابر ، وان كان كثير الفجوات ، يصــدر عن سياسة التكاتف التى يدعو لها المعتــدلون من جنود الحرية فى جنوب افريقيا وفى الولايات المتحدة وينبثق من قولهم بأن لاحيــاة للزنوج أو البيض الا بهذا التكاتف والامتزاج الـكامل ، فى الحقول ودور العلم وكل مكان . ولن يســـهل على دعاة التكاتف ان يقولوا بالذاتية الثقافية المتميزة ، والذاتية الحضارية ، التى تبشر بهما الزنجية وتدعو لهما فى حرارة وايمان ، يصدران أكثر الاحيان عن عاطفة تيقظت ، وأحيانا عن علم تؤيده الشواهد الصادقة بتاريخ افريقيــا ، وما اتصل بالتاريخ من علوم تعين على فهمه وتفســيره . لن يسهل على التكافليين هذا . اذن لتحدثوا بلسانين وقلبين ، فالتكافل يعنى فى شــكله وجوهره أن تذوب أشطار المجتمع من كل لون فى وحدة لا تميز ، ويتبع هذا أن يترك كل شطر من هــذه الاشطار ، اكثر مميزاته ليلتقى بالآخر ، والا عز اللقاء المنشود ان لم يستحل ، وهو لقاء ينادى به الاهلون المعتدلون فى جنوب افريقيا وينادى به الزنوج الامريكيون ، وقد نتج عن هذا لقاء فكرى بين الفريقين ، لا يتحدث عنــه أحــد بكلمات معدودة ، ولكنك تراه فى آثارهم المكتوبة وفى نشــاطهم

السياسي والثقافي ، ويشير بعضهم في حزن الى استحالة اللقاء بينهم ، يتحدث عن الخيبة التي أصابت الروائي الكبير رتشـــارد رايت حين زار غانا اول مرة بعـــد حياة طويلة في الـكتابة من أجل الزنوج ، والعمـــل في حركاتهم الســياسية والثقافيــــة ، وكثير من الايمان بوحدة المصير الزنجي في العالم . ما وجد حين تحدث للساسة في غانا ولأهل الفكر هناك أرضا مشتركة بينه وبينهم ..

على ان الخيبة التي احسها رايت ، والاحساسات المماثلة التي يحملها كتاب أصغر قيمة وسنا منه ، لن تطمس الحقيقة التي يعرفها كل الذين عنوا انفســـهم بشئون القومية الافريقية ، وهي ان الزنوج خـــارج افريقيا وفي مقدمتهم الامريكيون لعبوا دورا مركزيا — ان لم نقل الدور الاول — في يقظة القارة ، واكبر يقيننا ان رابطة اللون بكل ما يحمل هــذا التعبير من معان ، ستظل اقوى من اى عنصر من عناصر التبـــاعد التي تفرضها ظروف عيش الزنوج في اقاليم تفصـــل بينها آلاف الاميـــال ، وتفرق بينها التـــواريخ المختلفة ، والوجود الجديد الذى يخلق شخصية زنجية عليها من تعليمها واقتصادها وسياستها آثار لا مفر منهـــا ولا مهرب . ستعوض رابطة اللون عن كل هذا فيما نرى ونقـــدر ، حتى ينتهي الصراع السياسي الذى نراه في أوجه اليوم ، ولا نخطىء نهاياته المرتقبة . ولعل أصدق الشواهد على هـــذا هو ما كتبه القصصي والـكاتب الامريكي الزنجي جيمس بلدوين ، وهو من هؤلاء الذين اختاروا النفي في فرنسا اختيـــارا ، ليدعو لقضيـــة الزنوج باسلوبه ، وعاد للولايات المتحدة طائعا وقد أدرك

فى النهاية ، انه امريكى المزاج والثقافة ، لا يفهم الكفاح على النحو الذى يفهمه الافريــقى الزنجى ، وان كان لا ينكر على الافريقى أســلوبه ومرماه . انهم يريدون ليقوضوا نظاما استعماريا ويقيموا مكانه نظاما وطنيا ، وهم غير ذلك فى الولايات ، يريدون ليصــلحوا نظاما اجتماعيا فى الولايات المتحدة ، شقت مظالمه حتى على قوانين الدولة .. دعاة تقويض ودعاة اصــلاح لا يجمع بينهما الا الظلم الابيض . كتب يقول منذ خمسة أعوام

وهذه حياته وآراؤه ، يقول بين السود ، وان اختلفوا فى كثير : « رابطة لا انفصام لها ، هى علاقتهم المتأرجحة ، الاليمة القاسية ، بالانسان الابيض ، يشركون شيئا لا عيش لهم كريم دونه ، هو أن يصنعوا العالم مرة ثانية ، كما يتراءى لهم وأن يفرضوا هــذه الرؤية قسرا على

أهله ، كيلا تكون حياتهم أبدا طوع رؤية أخـــرى ارتآها الآخرون لهم وللعالم ، وفى كلمة موجـــزة ، الرابطة الوثيقة بين السود هى هذه الوجمة الحميمة للدخول فى العالم رجالا » ..

وبلدوين الذى يقول بهذه الرابطة الحزينة ، يرتاب ارتيابا فى فنون الزنجية وجدواها ، مثله فى ذلك مثل حزقيل . ليست أداة تقتحم الاســـوار المنيعة ، التى اقامها الرجل الابيض حول رجولته ، وما على الزنجى ـ اينما كان الا أن يصدر عن واقعه ، واقع يشمل فقر

السود ازاء البيض ، واحساسهم الذى لا ينقضى باللون وفقرهم الذى يدفعهم دفعا الى القســوة حتى على أخيهم الاسود ، فالفقر لا يعرف الفضــيلة ، ويرجو للزنجى أن يكتب غير عابىء بشىء الا الاتقــان فى الذى يصدر عنه . ولن تكون كتابته على اية حال الا افريقية

زنجية ، فذلك مصيره ، وحتم عليه اذن ان يفعل ، ولن تكون للزنجية دخل فى هذا ، ولا لغيرها مما يتحدث الناس من مذاهب ، والمذهبية رق « ان رايت افريقية فى الذى أكتب ، فذاك ما يجب ان يكون ، ان صدقت فى نغمى وفى التعبير عن نفسى » . هكذا يؤازره حزقيل ثم يمضى ويقول ، كانه يقرع الخالين من دعاة الزنجية فى غرب افريقيا « انا لا اشك فى انى زنجى ، واحدة من معطياتى ، وليست مادة للشعارات ، فيما احسب . تصور ان اردت صينيا يستيقظ مع الفجر ، يندفع للطرقات ، يصرخ فى الناس ، ان اسمعوا ، لقد جئتكم بجديد : اكتشفت شيئا صينيا فى نحتى ، وتصويرى ، وموسيقاى » ..



وما عدل حزقيل ..

ظلم الزنجية ، فيما نعتقد ، لانه ممن يعرفون ان هذه الحركة التى لم ير لها فنا يستحق ، ولا فحوى يعين ، حركة بينها وبين الظروف التى نمتها آصرة رحم ، واكثر ، جارحة من جوارحها ، وتراب المعركة هو الذى حجب عن عينيه أيامها الاولى ، واشعارها وآثارها الرائعة ، وحجب عن عينيه تطورها مع الايام. قال الشيخ انتاديوب ، وكانه راى ما قد يقال عن هذه الحركة التى رعاها شبابه كله « لكلمة الزنجية هذه تاريخ كامل ، لا يشركها فيه احد ، فالظروف التاريخية التى كانت هناك تشهد ميلادها ، خلقتها فى عقولنا نطفة ، وينبغى مع هذا ان نسترعى الانتباه الى ان الزمان الذى مر عليها حتى اليوم ، زادها ثراء فى الذى ارادت أن تقوله ، وترتب على هذا ان تجددت مع

الزمان وتغيرت ، كلما مضى عليها الوقت » . كانت اذن كالحياة نفسها ، تاريخ وواقع ، ثم تطورت مع الوقت ومع ما يحدثه الوقت من تغيير ، وانجزت فى كل مراحل تطورها ما لم تنجزه حركة مماثلة ، وهى اصل حركةزنجية دفعت الروح الافريقية دفعات لتصحو تبحث عن تاريخها وتقاليدها ومميزات انسانها بادىء الامر ، وتخرج تعارك من بعد لذاتيتها ومكانها مع الناس ولن يضيرها أن موقفا معينا هنا أو هناك للزنوج عقدته عناصر تاريخية واقتصادية يبدو للذين يصارعونها اليوم ، ان مشكلتهم تلك هى المفتاح ، وان مشاكل غيرها لم تحل ، أو تؤذن بحل . لقد اعتاص والتوى الامر فى مواقع باقية من المعركة ، والجيل الذى راد الحركة يدرك جيدا ، فيما نرى ، ان النهار قد شد ، وان طرائق قد بانت الآن ، وما كانت هناك غير طريقة واحدة ..

ولولا خشيتى الاسراف لقلت ان محاضرة الرئيس الشاعر سنغور فى اكتوبر الماضى ، والتى أشرت اليها غير مرة فى هذا الحديث ، بيان للزنجية الجديدة ، أو المتطورة ، بمعنى أدق ، لا لأنها كلها جديدة ، ولكن لأنها لخصت خواطر كانت هنا وهناك مبعثرة عن الحركة ، ودورها الجديد فى عالم الزنوج الحاضر ، ومن الطريف ان هذا الرجل الكدود الذى ما اشتهر بمفاكهة ، كان يسخر غير قليل من نفسه ومن اخوانه ، حين رجعت به الذكرى ثلاثين عاما ، ورآهم يحسبون انفسهم « كتيبة شعراء ترود الطريق للزنجية » . اثلج صدرهم علماء سلالات البشر ، والاحرار من الشعراء والكتاب ، بالذى قالوا عن الزنوج :

« فسللنا سيوفنا ، نحن المشاة السنغاليون ، وتصارخنا لنقتحم المعاقل التى عاشت طويلا فيها القيم الاوربية » سكارى بالذى اهل عليهم من جديد ، نشاوى تعززهم هذه الاحقاد التي ظلت زمنا فى صدورهم تغلي ولا منفس ، فى صمم عن نداء الاوربى وقد استيقظ هو بدوره ، يريد ليلقاهم مكانا فى الطريق ، يرمون الحضارة الغربية بكل قبيحة تراءت لهم ، لا يريدون الا المعركة ، والا الموت ، أما المسالمة ، فقد مات عهدهما وراح :

هذى الطريق عسيرة سرها
الموت وحده سبيلك
لقينى ..
للفروع ، للغاب ، للشجر ..
واصغ للريح مليا يهمس
لفه ليله الخالد لف
هذى الطريق عسيرة ، سرها ..
هذى سبيل قينى ،
لن تجد أن جئتها شيئا حفيا يرتجيك
عند هذا البلد الاسود ، سود الناس اهله ..
ستجد حين تأتيها قرى ، هادئات ، وادمات ،
قرب ماء ،
وستلفى عندها واحدة ،
كالت المساوى لأسلاف وآباء هنالك ،
لا يرعها وهى وسنى غير أصوات الطيور ،
فى سماوات ودخان غزير ،
وتلف الكوخ أشجار لها هدب ، يهدهدها
النهار القادم ،

تصحو لتحيا حول احداق المياه الجارية ..

وكانت « عنصرية ضـــد العنصرية » حتى وقعت الحرب ، ورأت هـــذه « الـكتيبة » شيئا مما تفعل الـكتائب حين تنقطع برأيها ، تسلم كل قيادها له ، تؤثرها على حياتها وحياة الآخرين ، وكأن للرأى حياة وحده . ورأت فئة من « المشاة السنفاليين » سجون النازية ، فترددت من بعد فى دعوتها العنصرية ، وكانت مبرراتها للعنصرية قوية ، لا تقـــاس بتلك التى كان يصرخ بها جوبلز عن حــــق الاوربيين فى التســـلط على رقاب الغير ، وأكدت الشـــواهد على هـــذا الذى رأته « الـكتيبة » الافريقية الزنجية وتغيرت به ، ما يقوله سنفور فى عاطفة لا تبين فى الرجال الـكبار الا لدى المحنة ، قال : « هـــذا التزيد ! فعدنا لعقلنـــا واحساسنا ، آه ، هذا الحقد والبغض ، ذلك العنف وتلكم القسوة !! وقبل كل شيء ، وفـــوقه ، هـــذه الدموع تجرى من المـــآقى ، وهـــذا الدم يسيل من العروق . كرهنا الذى رأينا وغثيت نفوسنا منه ، فقد كان كل تعس رأيناه غريبا على عبقرية قارتنا ، غريبا على حاجتنا للحب » . ونظروا حولهم فاذا أوربا فى بحر من الحزن والبغض والـكرب ، وما كان ذلك هدفهم حين دعوا للزنجية ..

***

كانت الزنجية تسعى لتذود عن قارة واهلها خارجها يزرعون الود والحب ، وراعهم هذا الذى رأوه ، لمـــا انطلقت شـــياطين البغض والحقد ، فوقف أكثر دعاة الزنجية يتساءلون عن المصـــير الذى يحتمل أن يلقـــاه الزنوج ان لم يطهروا دعوتهم من العنصرية الدامية ،

واتجهت فئة عارفة حساسة من « الكتيبة » الى فلسفة أخرى ، تحتفظ للحركة بروحها القدامة وأسلوبها الجديد يطعمها بحب وود يهدفان الى توضيح وتأكيد الثراء النفسي الذى يتمتع به الزنوج ، لا للمباهاة والمكاثرة ، بل لاعانة لحضارة الغربية ، على العودة الى شيء من الهدوء الداخلي . وبدأ البحث عن هذه الفلسفة الجديدة ، والزنجية الاولى ماضية سبيلها لا تنتظر ، ولولا خوفى الاثقال عليك لأوجزت لك بعض القرارات التى اتخذت فى روما فى اجتماع مشترك عقد فى فبراير عام ١٩٦٠ بين جمعية الثقافة الاوربية وجمعية الثقافة الافريقية ، ولكني لن انصفك ان لم أوجز لك الراى الذى انتهى عنده الآن الدعاة الاول — وأقول « الآن » عن عمد فالفلسفات الحية لا نهاية لاحتمالاتها على مقابلة الجديد — وخير ما افعله هو أن انقل لك عبارة الرئيس سنغور فى هذا الصدد « الزنجية اليوم لا تعبر عن نفسها على النحو الذى كنا ننفعل فى القديم ، لم تعد معارضة صرفة للقيم الاوربية وانما هى سعى لاكمال تلكم القيم بما عندنا ، وسيعنى المحاربون من انصارها لا بحرب الذوبان الذى ارادته لنا الثقافة الاوربية فيها ، بل بالعمل على الامتزاج فيها ، ومزجها هى بدورها فى الذى ورثنا من تراث . سيعمدون الى القيم الاوربية يستعملونها اداة لايقاظ قيم الزنجية الناعسة ، سيثرون بها حضارة الكون » حضارة فيها من الغرب سمات ومن الزنجية ومن غيرها ولعلك تحب أن تذكر هنا ان قائل هذا الكلام هو الذى وضع النشيد القومى لاستقلال بلاده ، وهو نشيد يبدأ ، هكذا : « البانتواغ ، والعربى ، والرجل الابيض »

الديمقراطية فى أفريقية

« أبدا آثر الانسان ، كائنا من كان ، وحيث كان ، أن ينزع للعمل وفق اختياره ، لا تعنيـــه منفعته ولا يخيفه عقله . ومن حق الواحد أن يختار ما لا يتفق ومنفعته . له أن يفعل ، وأكثر من هذا أخوتى الاعزاء عليه بعض الاحايين أن يفعل . هــذا هو رأينا . أنا أؤكد لـكم سادتى ان « اكثر المنافع نفعا » هو أن يختار الواحد منا اختيارا ما يروق له ، ما يجىء فى باله لا يروعه أن يخرج على قاعــدة أو عرف . لا بديل للاختيار الحر . ولـكن الناس تنكبوا الجادة حين لم يخلوا فى أنظمتهم التى يبتدعونها مكانا لهذا النزوغ فينا والخلة وتعالوا نقلب الرأى فى النتيجة . أين وصــل الانسان بذاته ونظمه التى أغفلت هذا النزوع ؟ تتكسر نظمه كلها ذرات فتيتة أمام هذه الصخرة لا تلين ، لانها فى الحق « اكثر المنافع نفعا » كما قلت ، كل شىء دونها عدم ، باطل ، عقيم . من الذى قال لهؤلاء العقلاء ، ان الانسان لايريد لنفسه الا الاختيــار الفاضل ، يألفونه ويعرفونه ؟ ما الذى حملهم على الظن بأن الانسان ينبغى عليه ألا يختار الا السبيل العاقلة النافعة ؟ من أين لهم هذا ؟ الذى يريده الانسان واضح لا ضباب حوله ولا غمام ، تسهل رؤيته ، يريد الاختيار المستقل ، مهما

اقتضاه هذا وحيثما قاده . . . »

* مذكرات من تحت الارض » دستوفيسكى عام ١٨٦٤

« ما أشبه هذا باسطبل اوجين ! اين يبدا الواحد منا ؟ بالجماهير ؟ نبدا بتعليمها ؟ » وهز راسه وهو يتحدث لنفسه « لا أرى فرصة هناك · سيقتضينا هذا قرونا طويلة ، ولا شك . حفنة من الرجال فى القمة . او حتى رجلا واحدا هناك ذو بصر ـ دكتاتور مستنير . كلمة تثير الرعب في النفوس ، هذه الايام · ولكن اية ديمقراطية يمكن أن تعيش مع كل هذا الفساد والجهل ؟ اى نوع من الديمقراطية ؟ من يدرى ، لعل شيئا فى منتصف الطريق » . .

شنو اشيب فى « واهتزت الارض تحتنا من بعد » نيجيريا عام ١٩٦٠

ستتعثر الديمقراطية فى افريقيا ، كما هى الحال فى البلاد الآسيوية ، التى استعادت حريتها منذ عهد قريب ، وربما تأخرت اعواما قبل أن تكيف نفسها ، لتتفق وحاجات تلك القارة ، وتبتدع انظمتها التى تحمل مثلها وحاجياتها من أرضها هناك وأخلاق أهلها وأمزجتهم وتاريخهم الغابر والمعاصر · هذه دعوى عريضة ، ولكننا نسوقها وفى ذهننا عاملان لا مفر من التفكير فيهما ، ونحن نتحدث عن الديمقراطية فى القارة الافريقية ، أولهما حال الديمقراطية فى البلاد المثلى ، فى شمال غرب اوربا وفى الولايات المتحدة ، وثانيهما هذه الآلام الحادة فى البلاد النموذج ، فى كثير من اقطار افريقيا السوداء ، أوجاع الميلاد أو التسنين كما عبر يوثانت قبل شهور . دعنا الآن نستعرض معا

بقليل من التفصيل هـذين العاملين اللذين سيؤخران الديمقراطية فى القارة ، كما نزعم ..

لا يمكن الحديث عن الديمقراطية فى افريقيا ، دون نظرة لحالها فى شمال غرب أوربا وفى الولايات المتحدة ، لأن القارة ورثت كل منظمات حكمها المعاصر عن هـذه البلاد ، وهى تعمل بأكثرها حتى الآن بعد استقلال كثير من اقطارها المختلفة التقاليد ، ولأن الذين يقومون على الحكم فيها ، الا قلة قليلة ، من نتاج التعليم الغـربى والثقافة الغربية فى الادارة والحكم . هذا الشطر من العالم هو الذى جعل لافريقيا المستحدثات من وسـائل الحكم وطرائق الصـناعة ومذاهب الفنون . ألف الافريقيون المحدثون أن يأخذوا المثال من هذه البلاد ، حتى حركاتهم الوطنية أخذت نموذجها من الوسـائل الاوربية التى ابتدعها المقهورون والمحقورون ومن عمل لهم من أهل الثقافة والقلم ، ليستووا بشرا مع غيرهم من الناس ، الا قدرا قليلا أخذته عن البلاد الاشتراكية فى شرق أوربا ومن الصين ، مداورة أول الامر ، عن طريق احزاب ورجال اليسار فى بريطانيـا وفرنسا ، ومباشرة فى الاعوام الاخيرة حين تيسر للشباب الافريقى أن يدرس فى معاهد الشرق وان يتصل برجال من الشرق. أخذت وسائل التنظيم الشـعبى والتركيب الحزبى ، والدعوة للأفكار عن الغرب ، حتى نالت اسـتقلالها وشرعت من بعد تبحث عن طرائق للحكم والادارة فى مرحلة البناء . كانت أوربا المثال وافريقيا النموذج ، منذ رست مراكب البرتغـال وهولنـدا والانجليز والدنمركيين والاسبان ، على شـواطىء القارة قبـل اربعمائة عام ومنذ اقتسمت أوربا أقاليم افريقيا العديدة،

اقتدارا وعنوة فى مؤتمر برلين عام ١٨٨٥ ، أتوا بحضارة غالبة اكتسحت ثقافات أفريقيا وحضاراتها وقطعت الصلة الا قليلا بين ماضيها وحاضرها الذى تعيشه ، واتت هذه الحضارة بكثير من الطيبات فاقبل عليها الناس ، يرسمون صورتهم على مثال الصورة الاوربية فى كل شىء ، لعلهم يبلغون ما بلغه الانسان الاوربى ، رغم الاصوات الفذة التى كانت تقاوم هذا الزحف الشامل من أوربا وترفضه ، تسعى جاهدة أن تذكر الافريقى العادى بأجداده الذين ابوا على الاوربى حين اتى أول الامر أن يأخذ منه حياته الحرة الغليظة القاسية يعطيه مكانها اخرى مريحة نعم ، وناعمة ، ولكنها لقاء حريته ، ثمن عبوديته ..

كانت هذه الاصوات تذكرهم بان الافريقى على عهد لقائه الاول بالاوربى ذاد عن آلهته القريبة الودودة وكره آلهة الاوربى هذه البعيدة ، تعده النعيم والرفاهية ، وعن أرضه التى لم تكن تطعمه الا بمقدار ، وعن بيئته التى كانت تفترسه وأهله آن غفل . نافح عن طيبه الغليظ الجائع ، تعينه أرضه وهو يضع منها ، جبالها ، غاباتها ، صحاريها ، أمراضها الفاتكة اربعة قرون ، اهتدى خلالها الانسان الاوربى الى كثير من أسرار الكون ، والافريقى فى عناء منه ومن بيئته القاسية . ملك الاوربى ناصية العلوم ، واخترع المدافع والاقراص مانعة الملاريا واستحال معهما على الافريقى أن يدفع عن نفسه وأرضه برمحه وخنجره ، لقاء نار هذا وذكائه المعقد الجديد ، حتى كانت الاعوام الاخيرة من القرن الماضى حين ملك الامر كله الرجل الابيض ، وذهل الافريقى بعلمه وقدراته وخدر عن ذاته ، وسلم بالذى

ما لم يكن ليسلم ، لو لم تلق أعوام اللقاء الطويلة مع الاوربى ستارا بين حاضره البشع المهين وماضيه الجائع الانف . يروون عن رجل هنا انه أمر أن يزحف على أربع يحمل سرجا على ظهره . هكذا رأى «جناب المفتش» أن يعلم الناس كيف يرفقون بالحيوان فقد كان الرجل قاسيا على حماره !! ويروون عن آخر انه كان يطوف مقاهى المدينة فى رمضان شهر الصوم يحمل سوطه فى يده يهوى به على المفطرين فهو «جناب المفتش» يعالج كل شئون الناس حتى أمور دينهم هم . ذل الناس وان شبعوا قليلا حتى انتصف هذا القرن . رادت الطريق فى القارة ثورة الضباط الشباب فى القاهرة تقول : « ارفع رأسك يا أخى » وقال الذين ثقفوا ثقافة سكسونية فى غانا ، ان بالهم لن يهدأ قبل أن يبعثوا « الشخصية الافريقية » على النحو الذى كانت قبل أن يطمس اللقاء الاوربى كل معالمها ، ليقودها حيث شاءت منفعته ، ويقظ عامة المفكرين الشباب السنغالى لقلة منهم كانت تقول لفرنسا لا لن نكون ظلالكم على القارة ، فقد أدركنا خصائصنا « الزنجية » من دراساتكم انتم لقديمنا واختبارنا نحن لحديثكم ، وامتلأت صفوف هذه القلة بالشباب الذى ثقف ثقافة لاتينية . قالها كل قبيل بلسان ، وردد الشعارات كل شعب وراء زعيمه يؤازره ، وخلصت افريقيا الا قليلا من رق أطعمها قليلا ، وفتح على قلة من أهلها النوافذ على العالم الرحيب فكانت « رياح التغير » كما قيل واستعادت القارة حريتها بمعدل ستة أقطار فى العام بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٦٣ . معدل يذهل ، ولكنه صحيح ..

ثم فركت القارة عينيها ، تنعم النظر وقد أعشاها غبار معارك الاستقلال . أدارت الرأى تريد لتأخذ عن مثالها نموذج الحكم ، فاذا المثال شبه طيف لا سبيل الى مسكه ، لم يعد صلدا كما كان ، ماع . غير ثابت غير قائم ، يترنح يهز كتفيه ، يقوس ظهره ، يعيده فى عناء مكانه ، يفتح ذراعيه ، يشد صدره ، كمن يستجمع قواه يعدها لتحمل هذه القوى التى أطلق من عقالها ، تكبر عليه وهو المبدع لها ، ينوء بحمل ما ابدع من مراكب فضاء ، والكترونات ، وذرة ، وما جاء معها من قيم وأخلاق تتمثل فى خنافس لفربول وسراة الليل فى سان فرنسسكو ، وزعيق ثقافة الجماهير فى كل مكان . الغرب المثال ينتقل من حال لحال يعيد تركيب منظماته لتستوعب هذه القوى الجديدة والاخطار ، بعد به العهد النفسى ، ان صح مثل هذا التعبير ، عن بناة نظراته الديمقراطية فى الاصل : لوك وبنتام وتوكفيل وسمث . ما عاد ممكنا أن يقولوا بالذى دعوا له : كلما ضاقت دائرة نشاط الدولة ، اتسعت دائرة الحرية للفرد ، وكلما خف ميزانها ثقل ميزان الانسان . ما عاد من يقول مع بروبتكين وبين ، ان الحكومة شر لابد منه . تغير هذا كله لما أتت العشرون عاما الاخيرة فى حياة الانسان على الارض بما لم تات به المئون من قبل. أضحى صبيا يعاظل السير داخل عباءة ، وازدادت حاجته ليد تعينه ، واقرب الايادى وأقواها يد الدولة. ان لم تقم على قدراته الجديدة ومتفجراته قدرة أعلى وافعل ، هلك . صغر الانسان وكبرت الدولة ..

هذا هو المنظر العالمى الذى راته افريقيا ، حين استردت مكانتها فى المحيط الدولى : انسان صغير

تحيط به قوات كبيرة ، صنعها ، يخاف أن تقضى عليه. تلفت المسئولون عن الحكم فيها لمعاقل الديمقراطية ، منابتهسا الاولى فى العصر الحديث ، فاذا هى حال مختلطة ، وبحث لا يهدأ فى المنظمات القديمة ، يتساءل هل تستطيع أن تحتوى هذا الجديد كله ، بحث لاينتهى لاتجاه واحد ، ان انتهى ، وهى التى قامت جميعها على اسس متماثلة وتجارب فى السياسة والاقتصاد غير متباعدة . فى بريطانيا مثلا يقولون ان النظام البرلمانى الحالى ، لم يعد قادرا على الحركة السريعة التى تقتضيها شئون التجارة والسياسة والدفاع هذه الايام ، عليه ان أراد أن يعاصر الزمان الذى يعيشه ان يقترب من النظام الرئاسى ، ولعلك قرات مثلى النادرة التى تطوف مجالس الظرفاء فى لندن هذه الايام ، عقب حديث طويل لهارولد ولسن مع أحد كتاب الاذاعة البريطانية : اتضح ان السيد ولسن سيجمع فى يديه هو أن فاز فى السباق القادم حزبه ، كثيرا من السلطة يبت ويحسم لا يشركه الرأى الا ثلة من المهنيين أهل الحرف ، فى شئون العلم والدفاع والتجارة ، يختارهم اختيارا فى مكتبه . قال واحد يعلق على اتجاهه هذا « انه يتحرك بنا نحو نظام رئاسي » قال صاحبه : « صحيح ديجول أم كيندي ؟ » ولخص فى كلمات قليلة معدودة ، الحال الباحثة المتسائلة التى تجتازها الديمقراطية الغربية فى هذه الاعوام . فديجول رئيس وكيندى كان رئيسا ، وبينهما فروق كثيرة فى الاسلوب والغاية . كان الرؤساء السابقون فى بريطانيا قبيل الانتخابات يعنون اكثر العناية بمن سيشركهم الحكم من الوزراء ، ولكن الرئيس القادم ان مشت به الريح نحو

الرئاسة لا يفكر هذه الايام فى صفات واسماء وزرائه ، ولكنه فيما يقول خلصاؤه وتنم احاديثه يخطط لمكتب رئيس وزراء أكثر عددا وأقدر يدا ، كى يستطيع خلاله ان يتخذ القرارات التى يرى هو أو يشير بها الموظفون المهنيون فى مكتبه ، مكتب الرئاسة ، وينصح بها المختصون الذين سيجند هو للعمل معهم ، على النحو الذى فعل كنيدى ، حين أحاط نفسه بأهل العلم من الجامعات وأهل الخبرة من الصناعات ، يسألهم ويستنير بآرائهم وان كان هو السيد المطاع ، حين تصطرع الفكر . .

لم يخف السيد ولسن عزمه لانه لا يقول به طمعا فى سلطة وانما يقول به لانه رجل قريب من الناس ومن الصفوة ، يحس بالذى يحس به الاولون من حاجة لتغيير الاداة الحكومية تغييرا يتفق وأعباء الدولة الجديدة ، ويعرف ما يقول به الآخرون من تفاصيل هذا التغيير ، فرئاسة مجلس الوزراء ان أضحت قوية ذكية عارفة تيسرت لها الحركة السريعة مع الحوادث وتيسر لها تنسيق العمل بين المصالح المختلفة فى الوزارات العديدة وهيأت لرئيس الوزراء شخصيا كل حقيقة ورأى ، فالرئيس كما عبر ولسن فى هذه الاذاعة الشهيرة الآن « عليه ان يتخذ المبادرة فى الشئون كما كان يفعل تشرشل فى أعوام الحرب » والا يجلس بعيدا أداة تضميد للجراح بعد ان تقع الجراح . لم يعد كافيا ، وقد تعقدت الشئون التى تعالجها الدولة ان يكون الرئيس واحدا من أكفاء عديدين لا يتميز عنهم الا بالقليل « أنا قلق من هؤلاء الهواة الذين يديرون الشئون المركزية فى الحكومة ولا أعرف احدا يستطيع القول بأن داوننج ستريت تقدر القيام بأعبائها كاملة »

« اعباء القيادة المسئولة » بهذا النفر الذى لا يعدو خمسين . ينبغى ان يزيد هذا العدد ، ان كان لرئيس الوزراء ان يقف على دقائق الامور « ما ادرى اى عدد من الناس سبعين فى مكتبه ليخدمه خدمة شخصية ان قدم الرئاسة ، ولكن خمسين لن يكفوه ، علاوة على وزرائه » ..

والرئيس البريطانى متواضع ان قيس بالرئيس الفرنسى ، الذى أبى الا سلطات أشبه بسلطات بونابرت . يرى هذا الرجل القادر الساحق غيره ، ان الرئيس ينبغى أن يكون مصدر كل سلطة حتى التى تتصل بالتشريع والقضاء ، سلطة ما عرفتها ديمقراطية فى الغرب من قبل ، يذهب الناقدون بعيدا فيقولون انه يرى نفسه السلطة الرابعة فى الدولة ، الصحافة . يقول هؤلاء انه يرى ان الصحافة ينبغى الا تكون الا اداة تحمل آراءه فى الادارة والحكومة ، ويرتابون فى ان اعوانه يعدون اسئلة معينة لصحافتهم الواقفة جنبهم ، ليرد عليها الرئيس فى ندواته . يكاد أن يقول حين تنتهى « هل من أسئلة لاجوبتى ؟ » . فالصحافة فى رأى الرئيس الكبير ، ينبغى أن تكون تعبيرا عن نواياه وآرائه ، أليس هو تجسيد فرنسا ورمزها ؟ شىء مفزع يعيد للذهن أسماء بعض من عرفنا من طغاة ، ولكن ديجول فيما يعتقد ويؤمن ليس لحزب أو طبقة وهو « فوق السياسة » ، يعمل لامجاد فرنسا وثقافتها وازدهارها ، من وقفه بجانبه وقف بجانب فرنسا . يذكر الذين رأوه على الشاشة أيام كفاحه الشجاع ضد المخربين لسياسته فى الجزائر ، كيف فتح ذراعيه يضعهما على صدره العريض تتشابك اصابعه عندهما

يختتم حديثه : « اعينونى انا » وكأن فرنسا هى صدره هذا ، هى نفسه . وليس اتجاهه هذا ومنحاه صـدفة من الصدف أو أثرا من آثار شخصيته الفريدة . انه هذا ، ولا ريب ، ولكنه أيضا وليد الظروف التى اشرنا اليها ..

حسبت فرنسا ، كما كان الناس كلهم يحسبون فى الغرب قبـل عشرين عاما ان الازدهار الاقتصـادى سـينتهى بمزيد من الحرية ، فاذا به يعنى الحكومة الاخطبوط ، تماما كالحرب ، كالفقر ، أذرعتها العديدة تلف كل شىء ، توفق بين الخطط الاقتصادية الحديثة ، والمنظمات السياسـية القديمة ، التى رعت الحرية الفردية يوما من الايام ، لعلهـا تفعل بعض ما فعلتـه بالامس ، فما فى طوقهـا وقد تغيرت الحال أن ترعى الحرية ، كل الحرية ..

كانت فرنسا فى حمى مشروع مارشال ، فى طريقها لرخائها هذا الذى نراه اليوم ، وآلت أمورها آنذاك الى الفنيين من رجال الاقتصاد والاعمال من ناحية ، والى الادارة فى الحكومة من ناحيـة أخرى ، الى التكنقراطية والبيروقراطية ، كما يعبرون هذه الايام ، وكان حلفـا خليطا سار فيه الراسماليون والاشتراكيون معا يبنون على حطام الحرب يزيلون الركام ، لا يعنى فريقـا من الفريقين مذهب بعينه أو مبدأ ، فقـد تركت الحرب بطونا جائعة لا يعنيها كثيرا من يحكم وكيف ان ترتب على حكمته الطعام والغـذاء والكساء ، يعينها أن تعيش ورأت الجمعية الوطنية خلال هذه الحاجات ، فرأتها قلقا وقيدا ، لانها كانت تثير العواطف السياسيـة فى وجه أشياء ، يراها أهل الصناعة والادارة عمليات تقود

فى النهاية لرخاء الجميع ، رخاء فرنسا كلها فى الوقت الذى يدافع فيه الاعضاء عن منافع الطوائف داخلها هى حتى تدهورت أخريات عمرها أيام الجمهورية الرابعة الى « جمعية المناظرة فى البالى بوربون » ، وجاءها ديجول تحمله عواطف الجزائر ساختة هائجة « ليجمع كل الفرنسيين فى جمهورية قادرة قاعدتها الصلة المباشرة بين الشعب والادارة لا تعوقها العوائق البرلمانية » ونجح على عهده التجمع الصناعى المالى الادارى ، كما لم ينجح من قبل . أسكت هؤلاء ووفر ما يريد الناس من حاجات ، قال وزير العلاقات البرلمانية فى الرئاسة وقد بهره النجاح يعلق على تجمع الاشتراكيين حول قاستن ديفر ، عمدة مرسيليا ، منافسا لديجول على الرئاسة فى الانتخابات القادمة « نسى زعماء المعارضة مشاكلنا العاجلة وشرعوا ينفقون وقتهم كله فى الدعوة لانتخابات الرئاسة المقبلة ، وفى اذاعة الشمارات » يقرعهم على التفكير فى رجل يقود فرنسا الماجدة ، وديجول حى يجوب الآفاق الفرنسية ظله فوق كل شىء ، رجل خلق ليقود . كلام بعضه حق ، ولكنا نخذل معتقداتنا ان ذهبنا مع هذا المفتون بعيدا فى تقويم هذا الرجل الظافر عمره كله . ان خطا الرجل الكبير ، وان بهرت وأشرقت فى اسلوبها ومحتواها الطموح وأسرت الفرنسيين كل الاسر لن تقوم مقام الحوار فى مجلس وطنى . لا بديل لصوت الشعب وان اضطر كل حين وآخر الى تحديد جديد لهذا المفهوم القديم ، وطلاب الحرية الحقيقية فى فرنسا كثيرون جريئون ، ما بهتت أصواتهم وأشخاصهم لان رجلا يحبون ويهابون فى آن واحد ، يقول لهم ، معى ترفهون،

فما بالخبز وحده يحيا الذين يحسون ، ولا بمجد رجل واحد ماجد ، ولا بديل للحرية ..

هـــذه حال الديمقراطيـــة فى بريطانيا التى علمت الافريقيين فى مستعمراتهـــا ، وحال الديمقراطيـــة فى فرنسا التى اخذت بيد النـــاس ، كل النـــاس عبر باستيلها الى الحرية وحكم نواب الشـــعوب . رجلان عظيمان : ديجول ، وولسن ، بأى معنى أخذت العظمة • كلاهما قد ترك آثار اقدامه على ارض بلاده ، وانتهى من كل الذى بلغ فيه الصغار طلاب المكانة ، وكلاهما يعرف طيبا كل الذى انجزته الديمقراطية ، الكلاسيكية فى تاريخ البلدين الـكبيرين ، ولـكنهما نقطتا تحول فى تاريخ الديمقراطية ، ويعرفان عن درس ذكى وخبـرة نشطة ، ان الادارة والحكومة منذ الآن أضحتا فنـــا وعلما لا صخبا أو حديثا يزجى أو مطامع تتصـــالح كى تصل القمة ، او مرارات تكوم أحقادها لتصل وتنتقم •

انهما رائدان ، اكبر اليقين ، كانا يحبـــان للقديم الذى الفا وتربيا فى ظله أن يعيش فما ديجول بالثائر العادى ، ولا ولسن ، ولـكن الذى تحب أو تؤثر لا يظل معك لانك تحب وتؤثر ، والســـياسى الحكيم من استجاب لمقتضيات ايامه لايرقه مبدأ بعينه أو مثال لا سبيـــل اليه ، انهما رائدان فى التطور ، وان لم يتضح الوجه الذى يريدان ليرسما فيتبع الناس فى القارة الافريقية . انك لا تنقل من غيرك تجربة لحظة فى التاريخ . تنقـــل المجرب الصلد القائم على قدميه ترى معالمه ..

والقلعة الثالثة من قلاع الديمقراطية الغربية ، هى الولايات المتحدة . انها تعيش فترة انتقال أيضا ، تعالج وجها آخر من ازمة الديمقراطية الـكلاسيكية فى الوقت

الذى ترى البرلمانية البريطانية ان تقترب من البرلمانية الرئاسية ، يقول أهل الفكر والقيـــــادة فى الولايات المتحدة : ان البرلمانية الرئاسية ينبغى أن تقترب من أختها تلك ! ! ان نوع الحكم فى بلادنا لا يعين على البت والحسم فيمـــا يقول جورج كنان المفكر السيــاسى الكبير ، رسول كيندى الراحل الى يوغوسلافيا . لقـد أصاب السلطة التنفيذية فى بلاده « شلل » كما يعبر . ان الرئيس وهو أقرب تمثيلا للشعب من مجلسي برلمانه فى المؤتمر ، تكاد يده أن تكون مغلــولة الى عنقـــه . للبرلمان فى مجلســيه رأى وللقوات المســلحة رأى ، ولسلطات الامن فى البلاد رأى « كلهم يقررون شئوننا القومية » وحركة الرئيس تقيدها بعد هذا كله منظمات فى البرلمان على رأسها لجنــــة الاعتمادات ، وتغل يده بيروقراطية غيورة على نفوذها أشد الغيرة ، وتقف فى سبيل ممارسته لسلطاته الكثيرة ، تبلغ سلطات ملك ان قرأتها فى الدستور . جماعات فى البلاد ذات ســلطان تربط بينها منافعها الكثيرة وتحيزاتها الاكثر

ولا ينطق كنان عن هوى ، حين يقول ما يقول عن ازمة الديمقراطية فى بلاده . يســـوق مثلا على نظام « الشلل » الذى يشير اليه ، فيتحدث عما لقى من عنت أيام سفارته لبلاده فى بلغراد . كان الرئيس كيندى عاطفا مثله على محنة الزلازل فى سكبجى ، ولكنهما عجزا رغم ما جاهدا عن أن يدفعا فلســا يعينــون به ، وملايين الدولارات فى مصرف يوغوسلافيا الـكبيرة قابعة . ما وافق البرلمان . ثم يمضى الرجل يقول فى روح خفيفة يقول انه كره أن يقف يتفرج على المــأســاة فدعا الامريكيين فى يوغوسلافيا ليتبرعوا بدمائهم للجرحى ، وتدفق هؤلاء وراءه يتبرعون فقد كان أول من فعـل

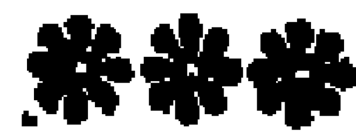
« ما كان في وسع لجنة من لجان البرلمان ان تحرمني حقي في بذل دمي » . لو كان يملك عصبة في البرلمان تقف بجانبه أو بجانب يوغوسلافيا لما فشل في قضية انسانية ، ولما ترك خدمة كان يحبها ويقدر من اختاره لها اختيارا ، الرئيس الراحل كينيدي . خذلته وخذلت رئيسه وحدها . لمس مثلها كينيدي نفسه وهو القائد الذي ما عرفت بلاده شبيها له منذ جفرسن ولنكلن . كان رغم سلطاته التي زادت على سلطات هذين مع الايام ، يلقى نصبا ، ما لقياه حين يمس المحرمات مقدسات المحافظين . كانوا يقفون أمام تشريعاته . كل ما هم مثلا بزيادة الاعانات الخارجية وكلما اقدم ليزيل عن ارض بلاده وصمة العنصرية ، وكلما خطا خطوة يخفف بها أوجاع من يمرضون ، وآلام من لا يعملون ، عجز عن هذه الشئون وهو القوى القادر القريب من نفوس اهله في داره ، ونفوس غيرهم كثيرين ، وأتاه من ينصحه ليخاطب الشعب فوق رأس البرلمان فهو مختاره الاثير ، كما كان يفعل روزفلت ، ويفعل اليوم ديجول ولكن كينيدي كان سياسيا يعرف قدر قدراته . كان يدرك انه اتى الرئاسة بأصوات معدودة ، مائة وعشر الفا لا تزيد ، يصعب معها السير الحثيث . اركان حزبه يراسون أهم اللجان في البرلمان ، و... سدنة المحافظة التي كان يعمل كينيدي على تخفيف غلوائها في البلاد ، هونا على مهل . كان يعرف تحقيقا اين مكانه من الرجعية وتقاليدها الراسية العنود ، ان خاطب الشعب فوق راسها أقلقته بتحالف قوى مع اضرابهم في الحزب الآخر ، لان الحزبين في الولايات

المتحدة ، كتل عدة متصالحة داخل كل حزب ، لا وحدات تختلف فى كل حزب محافظون معتدلون واحرار يتعايشون ، والحق الحقيق هو انها عاجزة عن قيادة البلاد كما تفعل الاحزاب فى أى مكان ، لفرط التناحر داخلها والتصادم بينها . تقود الرأى والسياسة فى الولايات المتحدة ، صحافة تنتمى فى اكثر الاحيان لطوائف وصناعات وعصبيات وأديان، وتليفزيون تتأرجح معه عواطف العامة ذات اليمين وذات الشمال وفق قدرات وبسمات أو زغرات من يتحدثون وعيونهم النجل ، وجماعات متراصة اكثرها بعيد عن الاعتدال فى الذى يبغيه ، واخرى تقسم لك انها غير سياسية ، وهى حانثة ، وكنائس لا يجرؤ ذراع فى الادارة مهما قوى سلطانه ان يمتد لها فهى حصن حصين . اجهزة ومنظمات تكيف الفرد الا من عصم تعليمه وعصمت خبرته ..

هذه حال الديمقراطية المثال وصف حالها المعنوية وأضاف الى ما نقول عاملا نفسيا ، أحد الدارسين وهو يتحدث عن عبرتها للقارة الافريقية قال : « وفى العالم الغربى بعد هذا كله خدر عميق تجاه القيم التى رافقت رخاءها الجديد وازدهارها الناعس » . حقيقة لاينكرها الا الاقلون ، لا المنظمات قارة ثابتة ولا المضمون مما يسرع له الواحد يأخذ عنه وهو يبنى وطنا جديدا طوبة طوبة من الاساس . أولى للأفريقى أن يثق بنفسه اذن، وأن يبحث عن منظمات مواعين لهذه الثقة ، فما يمكن له أن يعيش مع الخدر ، ومع المنظمات تتأرجح وتتغير ، وهو فى عجلة من أمره . ويجدر بنا ونحن نختم هذا الشطر من الحديث أن نقول ان الاهتزاز الذى أصاب

المنظمات الغربية موقوت ، وكذلك الخدر ، فجوهر الامر ما تغير لان الانسان الغربي ما زال حريصا اشد الحرص على حريته ، وهداته من المصلحين يزيدون كل يوم شيئا هناك وينقصون شيئا هنا ليروا ما يمكن لهم أن يعملوه ليبقوا على الانسان المعاصر حريته من التكنقراطيين والبيروقراطيين وحياته من الذرة واخواتها المهلكات وليمضوا في تخطيطهم للرخاء الذى لم يعد كافيا أو مقنعا ان لم يعم الكافة ويشمل العامة . ولست اقول جديدا حين اقول بانتصار الفرد في النهاية ، يقول به كثيرون ممن تعنيهم حال الديمقراطية هذه الايام . قال به حديثا بيتر كالفكرس وقد طوف كما طوفت في هذه الورقة ينظر للديمقراطية الكلاسيكية (كلمة ثقيلة غير دقيقة لا تعني كثيرا ولكنها سرت على الالسن تعني الديمقراطية الغربية بنت ديمقراطية الاغريق) . قال صاحبنا يلخص كل هذا : « ان فرنسا ألقت بالديموقراطية البرلمانية بعيدا ، ومشت نحو ما يسميه بعض الكتاب بالتكنقراطية ، ولكن الطريق لم تنته بالفرنسيين بعد ، سيقفون يوما من الايام غير بعيد ، وهم في مسارهم هذا الخشن ، وجها لوجه أمام مشكلة تحويل تكنقراطيتهم هذه الى ديمقراطية عامة . أما الولايات المتحدة فتمارس نوعا مغاليا من الديمقراطية الجماهيرية تتعثر معها الحركة ، يخفف من قسوتها على الحاكمين والمحكومين ، فساد لا يمكن معه السير الرفيق بالامور ، أو الاحترام الشامل للبرلمان ، أما بريطانيا فقد حلت عقدة الصدام الحتم بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية ، بأن مشت نحو تقوية يد هذه الاخيرة . عززنا سلطة رئيس الوزراء

الشخصية تعزيزا ما عهدناه ويقيني اننا سنمضي في هذه الطريق حتى نهايتها ، واننا سنسعى للابقاء على نظامنا هذا الذي يقتضي رئيس الوزراء ويضطره اضطرارا ، الى أن يصعد قمة الشجرة السياسية خلال البرلمان ، لا محيد عنه » . حقائق تقودنا الى القول بأن لا معدى للأفريقي من أن يبحث عن ديمقراطية أخرى غير هذه كلها فهي في سبيل أن تبدأ حياة جديدة من صنعها ولها ، كما هي الحال في البلاد الاقدم ، تعدل في أساليب حكمها ومنشآتها ، لتقابل حاجة العصر ، تقاوم الخدر



العامل الثاني الذي قلنا انه سيعوق مسار الديمقراطية في القارة ، يؤخرها ربما أعوام غير قليلة هو حالها هي غير المستقرة ، ولا يلومني أحد ان أكدت تأكيدا الاضطراب الذي تعيشه القارة الناهضة فأنا اكتب و « أسبوع العار » غير بعيد من أخريات مارس الذي أكتب فيه هذه الكلمات ، الاسبوع الذي تمرد فيه جيش تنجانيقا على السلطة الدستورية والاسبوع الذي « نبل » فيه علينا من أرض سحيقة بعيدة بعد أرض الغول ، جون اوكيلو « الفيلد مارشال » مختار السماء للذبح والقتل في زنجبار ، جزيرة الخضرة والروائح الجميلة ، واريد أن نستعرض معا القلاقل التي عاشتها القارة في الشهور القليلة التي مضت من عامنا الحالي لتدرك معي ان القادة الافريقيين وان تجردوا عن الطموح الشخصي ، وكثيرون منهم كذلك ، لن يجدوا الاسس الاولية التي تقوم عليها الديمقراطية في بلادهم العدة ، قبل أن يمضي زمن طويل . ستأخذ ذكاءهم كله ووقتهم جميعه مقتضيات الامن ، وخلق

قدر من التماسك الوطني ، لا حياة للديمقراطية دونهما فهي تفترض قبل كل شيء مقدارا كبيرا من الوحدة الوطنية ، التي تضع الاساس الذى يعود اليه الناس بعد الخلاف والجدال ، مهما طال هذان ، كما تفترض مقدارا من العمل الاقتصادي البناء يجمع الناس حوله. انظر معي لحصيلة هذا الربع من عامنا الحالي ، اذن تر الذى اراه . الخيار الاليم الذى تواجهه عدد من اقطار القارة ، ليس بين نوع من انواع الديمقراطية في الحكم ونوع من انواع الديكتاتورية الشخصية الحزبية .

الخيار بين الفوضى المدمرة وأى نوع من انواع الحكم ، يرتكز على سلطة مركزية قوية تردع الطوائف والنزعات والاشخاص ذوى الطموح حينا شومبى ، والهوس حينا آخر كالنجى ، والشذوذ حينا ثالثة اوكلو . انظر لما وقع منذ أسابيع فحسب ، على يد هؤلاء ، ويد من بفعلهم ينتفعون ..

ـ بدات فى راوندا مذبحة فى عيد الميلاد قتل فيهـا حتى هذه الساعة عشرون الفا من قبيلة والوتسى التى كانت تحكم الاقليم وهى اقلية بالقياس لقبيلة واهوتى التى تحكم البلاد الآن وقد فازت فى المعركة الانتخابية الاولى التى جرت قبيل الاستقلال ..

ـ بدأت أول العام فى مديرية كويلو على بعد ٢٥٠ ميلا من ليوبولدفيل مذبحة مجنونة يديرها واحد من اتباع الزعيم الراحل لومومبا هو السيد بيير موليلى وزير المعارف السابق ، وما يدرى احد ماذا تكون الحال فى الكونغو التعيسة حين ترحل عنها قوات الامم المتحدة فى يونيو ، وفى الجو اشاعات ملحة تقول ان عددا من الجنود البيض المرتزقة قد اتخذت مكانا فى أقاليم

من انجولا قريبة منها ، لتنقض ان وجدت الفرصة ..
ـ في الاسـبوع الثالث من يناير هبط على الكون مسخ اسمه جون اوكيلو ، والفت به المقادير في زنجبار يذبح « العرب » وما ندري اي درب موحش يسير الآن فقد قذفت به ثورته خارج الجزيرة البائسة ، وان كان قد ترك اقدامه الفليظة هناك ، في زنجبار هذه اللحظة التي اكتب فيها ألف بائس وبائسة في السجون يرقبون مجيء مراكب من عرض البحر تحملهم لمسقط وعمان من حيث اتى جدودهم الاولون منذ الف عام في القرن التاسع ..

ـ في الاسبوع الثالث نفسه ثار الجنود في دارالسلام على الساحل وفي طابورا في الداخل

ـ وتثاءب عمرو اذ تثاءب خالد ، كما يقول شاعر المعرة ، وكان عمرو هذه المرة معسكر جنجا من أعمال يوغندا . هاج المعسكر يوم ٢٣ يناير ..

ـ في الاسبوع نفسه « بل » رأسه الرجل العاقل كنياتا حين رأى نيريرى « يزينوه » واوبوتى ، أسرع يطلب النجدة من الجيش البريطاني ، واتت فقعد المسكر حيث ينبغي أن يكونوا ، في الثكنات ..

ـ وفي الاسبوع الاخير من يناير هاجت الثورة مرة ثانية في الكنغو برازفيل تريد لتعيد القس فلبيريورو وكان قد راح عن الرئاسة فوق موجة ساخطة ، قبل شهور ..

ـ وهاجت الثورة في قابون أول الاسبوع من فبراير ولم تعد الحال سيرتها الاولى الا حين اتت جنود فرنسا تعيد الرئيس ليون ميا يحرس لفرنسا الصديقة المعادن الكثيرة في البلد الصغير ..

هذه حال القارة فى مطلع عامنا الحالى ، ولو أردت لك وضـــوحا أكثر لرجعت بك قليلا شهرين لتكتمل الصورة فى ذهنى وذهنك . صـــورة لا تكاد أن تتبين وجهها من فرط التشويه...

ـ قتـال فى الحدود الحبشية الصومالية ، ما زال قائما لا يعرف احد متى او كيف ينتهى ..

ـ قتال فى الحدود الـكينية الصومالية ، قائم تتعقد اسبابه بنتائجه كل يوم ..

ـ ثورة فى جيش توقو انتهت بقتل زعيم افريقى كان ذا اثر وخطر ، هو جوليس اوليمبيوس ..

ـ قتال بين الاهالى فى الشمال والاهالى فى جنوب تشـاد لاسباب أكثرها دينى وعنصرى ..

ـ انقلاب عسكرى فى داهومى انتهى بحكومة خليط تعرضت منذ أيام لخطر انقلاب جديد ونجت منه ..

ـ محاولة انقلاب عسكرى فى السنغال انتهى بقائد ذكى شجاع فى السجن ، هو السيد محمدو ضيا ..

ـ مؤامرة فى ساحل العاج على حياة رئيسها هوفى بوانيه ، انتهت بالقاء كثيرين فى السجون ..

ـ دخل اثنان من زعماء المعارضة فى نيجيريا السجن بأحكام طويلة لتدبيرهما مؤامرة على الحكم القائم ، فيما يقال ..

ـ المؤامرة الخامسة على حياة دكتـور كوامى نكروما وقعت منذ اسابيع وانتهت بالقاء مدبريها فى السجن..

سبع عشرة دولة مستقلة فى الشــطر الاســـود من القارة تعيش حياة تستحيل معها الديمقراطية ، على اى نحو عرفتها وبأية سبيل أردت أن تحقق جوهرها. لا يمكن لبلاد هـذه حالها أن يفكر زعماؤها فى حرية

الكلام أو سيادة القانون أو تمثيل المصالح والجماهير، ولا لوم عليهم ان هم انفقوا جهدهم كله فى صيانة الامن وخلق الاسس التى تقوم عليها القومية الاقليمية مكان القبلية المحلية ، وفى ابعاد الحرب الباردة التى تلعب دورا غير صغير فى اذكاء هذه النار ، لاسباب لا تتصل من بعيد أو قريب بالقارة النامية . ان مراقب هذه الحال لا يسعه الا أن ينتهى الى القول بأن قادة افريقيا واكثرهم رجال نذروا انفسهم لحرية بلادهم مستنيرون يعرفون ما يعملون ما وجدوا امامهم صبيحة الاستقلال، طرائق فى الديمقراطية يختارونها وجودا الا معدى لهم من حكومة ذات سلطان مركزى قوى يقيم القواعد من بدء . كان الخيار بين الفوضى ، وحكومة اية حكومة ، ولم يكن الخيار بين ديمقراطية ودكتاتورية ، كما قد يخطر على البال ..

وترتب على ظاهرة القلق هذه والاضطراب ، أو نتج عنهما ان شئت ، فكلاهما اثر وسبب ، ان الحرية السياسية لم تأت حتى بقدر مما وعد المؤمنون . على النقيض ، أوثق الوثائق ، سجلات اللجنة الاقتصادية الافريقية تحدثنا بأن الانسان الافريقى خسر المعركة الاقتصادية وهو يكسب السياسية ، بل لم يخضها . شىء يذهل ، ولكن احصائيات الاعوام الخمس بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٦٣ ، تشير اشارة واضحة الى ان الناس فى القارة كانوا عالة فى طعامهم اليومى على غيرهم من المنتجين فى الولايات المتحدة والبلاد الاشتراكية . اننا ندرك ان كثيرا من الجهد الانسانى انفق فى النضال من اجل الاستقلال فى هذه الاعوام . انصرف اليه كل رجل وانصرفت اليه كل امراة كما نعرف ، ولكن هذا

ترتب عليه واقع اقتصادى كالح الوجه لايمكن لافريقى ان يهرب منه . تتحدث واحدة من هذه الوثائق التى تسجل الحصيلة الاقتصادية فى أعوام العراك ، وتنتهى الى القول بأن « ازدياد المحاصيل الزراعية كان اقل من ازدياد السكان فى هذه الاعوام » وكان حتما أن تستورد افريقيا وهى القارة ذات الارض الوفيرة والماء الغزير ، مقادير كبيرة من غذائها ، وان ترفد هذا الاستيراد ـ بهبات الذرة من الولايات المتحـــدة ، وتمضى الوثائق فتدلل لنا بأرقام مخيفة مروعة ، على ان الوســـائل القائمة فى التجارة العالمية ، وهى وسائل طليقة لا قيود عليها ولا حدود آذت حصيلة القارة من العملات الصعبة اذية بالغة، لان المواد الاولية التى تنتجها القـــارة كانت تباع بأثمان زهيدة فى أسواق العالم ، تزداد هبوطا كل عام ، بينما ترتفع أسعار المصنوعات الاوربية كل عام . نقص متوسط أسعار الحاصلات الزراعية فى عام ١٩٦٢ ، بمقدار خمسة فى المائة ، وترتب على هذا أن انخفضت حصيلة النقد من الصادرات بمقدار اثنين فى المـــائة ، وكانت تكون اتعس حالا لو لم يزد الانتـــاج ، وتسوء الصورة الى حد مخيف حين ترى ان هـــذه النســـبة أعنى نقص متوسط أسعار الحاصلات الزراعية ، ترتفع الى ثمانية عشر فى المائة ان اعتبرت المتوسط فى هـــذه الاعوام الخمســة موضع الحديث ، بدلا من خمسة فى المائة فى عام ١٩٦٢ فحسب . ولاضرب لك مثلا عمليا يوضح هذا الذى أقول بمثال من نيجيريا : باعت عام ١٩٥٢ أربعمائة الف طن من الفول السودانى ، ســـعر الطن ١٢٠ ريالا امريكيا ، وارتفع مقـــــدار ما ينتج النيجريون عام ١٩٦٣ الى ثمانمـــائة وخمسين الف طن

يبعث بنفس القيمة التي بيع بها محصول العام السابق، ولعل هذا ينطبق على البن والقطن والسايسل والتبغ والشاي والمطاط والكاكاو وما من هذه بسبيل مما تنتج القارة من مواد أولية ولولا الزيادة في كمية الحاصلات في هذه الاعوام الخمس ، وقد بلغت ٢٠ في المائة لتدهورت الحصيلة الى حد يقف معه النمو الاقتصادي الذي بلغ ثلاثة في المائة في متوسط هذه الاعوام لقاء اثنين في المائة في عام ١٩٦٢ . ولماكانت المصنوعات الاوربية والامريكية ترتفع اسعارها على الدوام ، فان الميزان التجاري في هذه الفترة كان أبدا في غير صالح القارة ، الامر الذي ترتب عليه ان القوة الشرائية الحقيقية لصادرات الزراعة انخفضت بمقدار ستة في المائة ..

انا لا أستعرض الاقتصاد الافريقي لتعرف عنه ، ولكني اضع هذه الارقام المملة بين يديك لاقول لك ان الحال الاقتصادية في القارة ستكون عنصرا من عناصر تاخير الديمقراطية فالمعروف الذي لايجادل فيه الكثيرون هو أن مبرر الوجود للحكومات القوية الاخطبوط ، هو انها أقدر على تدبير الحياة الاقتصادية من الحكومات الديمقراطية ، وان كنت أرتاب في هذا كما ترتاب الكاتبة الكبيرة هندن التي أقدم لها بهذا الحديث ، ولتدرك معك أن وقتا طويلا سيمضي قبل أن تعين الحياة الاقتصادية على ميلاد ديمقراطية أفريقية ، أحب لك ان تتامل في هذه العبارة التي وردت في ختام وثيقة اللجنة الاقتصادية الافريقية ، التابعة للأمم المتحدة ، تقول العبارة : « لا يجد الباحث أية اشارة الى أي تغيير في العوامل بعيدة المدى ، التي تتجه الى تخفيض أسعار المحصولات الزراعية في التجارة العالمية . لقد ارتفع

الطلب للمواد الغذائية فى كثير من البلاد الصناعية ببطء ملحوظ فى الاعوام الاخيرة ، لان الدخول فى هذه البلاد واستهلاك الطعام بلغا مستوى لا تعنى فيه زيادة الدخل الصرف الا على قليل من المواد الغذائية المستوردة .. اكتفى النــاس او كادوا فيما تقول احصائيات هــذه البلاد المتقدمة ، ما هناك مجال لمزيد ، واضر بالتصدير فى افريقيا انكثيرا منالبلاد الصناعية ، شرع فى توسيع الزراعة على اراضيه ، وتخدمها بالآلة وهى أقدر على الانتاج والوفرة الرخيصة ، ومشت هذه البلاد خطوات واسعة فى المحاصيل التى تستطيع هى انتاجها ، وكانت من قبل اكبر سوق لمحاصيل القارة الافريقية المختلفة ، والحكومات تعين مثل هــذه الزراعة فى أوربا اعانات مالية فعالة ، لانها تملك أن تفعل » . صورة غير مريحة للاقتصاد الافريقى ، يرجو الـكثيرون ممن يعنــون بالشئون الاقتصادية فى القارة الافريقية أن تنتصر فى النهاية صرخة « التجارة لا الاعانة » وقد فشلت الهبات والاعانات حتى الان فى تقوية اقتصاديات القارة الا بقدر ، صرخة تقصد الى تنمية البلاد الفقيرة بالتجارة المسئولة لا الصدقة المبذولة ، وكانت لهذا عنصرا من العنــاصر التى دفعت الامم النامية لاجتماع القاهرة منذ عام الآن واجتماع جنيف العام الذى سينعقــد فى ٢٣ مارس للنظر فى شئون « التجارة والتقدم فى البلاد النامية » . فرجة أمل لتحل التجارة محل الاعانة ويتوفر الخبــز للفقراء مع الكرامة ، ولكن آثار هذا الاجتماع لن تجىء بعد غد قريب ، فالمصاعب التى سيتصدى لها المجتمعون وعددهم الف وخمسمائة ، يمثلون مائة وثلاث وعشرون دولة ينوء بها هرقل ذاته

ولنمض قليلا معها لنتدلل على نقطتنا التى تقول ان أوضاع افريقيا الاقتصادية ، لا تبشر بيوم قريب تزدهر فيه الديمقراطية ، أية ديمقراطية ، فى أقطارها العدة . لو كان الامر بيد افريقيا وحدها لهان الامر الى حد ، ولكن تقدمها الاقتصادى مربوط أوثق الرباط بأسلوب التجارة الذى يسود العالم اليوم ، عالم الفقراء وهم الكثرة وعالم الاغنياء وهم القلة ، هؤلاء ينتمون الى ٣٣ دولة من دول اجتماع جنيف ولا يزيدون على بليون من السكان وأولئك ينتمون الى البقية أى ٩٠ دولة ويزيدون على بليونين من الانفس ، وبيد هذه القلة وحدها ان تغير أسلوب التجارة فى العالم ، على ضوء حاجة الفقراء ..

أمام هذا المؤتمر الخطير تقرير من سكرتيره العام ، يقول فيما يقول ان على الدول الغنية أن تغير من وسائل التجارة فى العالم ، وكلها فى يدها ، على نحو تستطيع فيه الدول الفقيرة أن تنمى اقتصادياتها بنسبة خمسة فى المائة فى العام ، لتستطيع اللحاق بمستوى العيش الذى تعيشه اوربا الغربية ، فى الثمانين عاما القادمة ، وبذاك الذى تعيشه الولايات المتحدة الآن فى المائة وعشرين عاما القادمة !! ذلك لان هذا الارتفاع الضئيل فى النمو الاقتصادى لن يعنى الا زيادة أضأل منها فى دخل الفرد الافريقى نحو اثنين ونصف فى المائة ، لأن النصف الآخر يضيع فى بحر تزايد السكان الذى لا يقل عن اثنين ونصف فى المائة . وتمضى هذه الوثيقة الوائقة فتحدثنا ان هذا القدر من النمو أن سمحت به البلاد الغنية والامر كله بيدها الآن ، لن يقرب الفجوة الا قليلا بين شطرى العالم ، شطره الذى يملك وشطره

الذى لا يملك ، ذلك لأن التقدم فى البلاد الفقيرة سيعنى مزيدا من استيراد بضائع الانتاج وسلع الاستهلاك ، ولن تستطيع البلاد الفقيرة هذا الا اذا تغيرت سياسات التجارة التى تخفض من القيمة النقدية لصادرات البلاد الفقيرة كل حين ، وترفع من أسعار وارداتها من البلاد الغنية فى الوقت نفسه . ان نصيب البلاد النامية من حجم التجارة العالمية ينخفض كل عام . كان ثلاثين فى المائة حين بدات خمسينيات هذا القرن ، وانخفض الى عشرين فى المائة حين انتهى العقد ، على ان نصيب الغرب فى هذا العقد نفسه ارتفع من ستين فى المائة الى ستة وستين فى المائة ، وارتفع نصيب البلاد الاشتراكية من حجم التجارة العالمية فى هذه الفترة نفسها من ثمانية فى المائة الى اثنى عشر فى المائة ، وأدعى الى الهلع من كل هذا ان حجم الصادر من البلاد الفقيرة فى هذا العقد ، نزل بمقدار ست وعشرين فى المائة للأسباب التى ذكرتها قبل قليل ، وان البلاد الغنية التى ستجتمع فى جنيف لن تجد الطريق سهلة لمقابلة هذه الصعاب التى تزيد الفقراء فقرا والاغنياء غنى ، وتقترب بهم جميعا الى هاوية الثورة المدمرة ، كما يقول كل الذين تصدوا لهذه المعضلة البائسة ، التى يزيدها التهابا ان الاغنياء بيض وان الفقراء سود وصفر وسمر . انها اكثر من قصة الديمقراطية فى القارة السوداء ، قصة « ١٧٨٩ الرجل الابيض » كما تعبر الباحثة الاجتماعية باربرا وورد ، ثورة الكثرة الملونة الفقيرة على القلة الغنية البيضاء ، ان هى لم تر سبيلا واضحة نحو شىء من العدالة الاجتماعية على نطاق عالمى ، كما وجدته على نطاق اقليمى

لم نسق هذه الارقام ، كما قلنا ، من أجل المعرفة الاكاديمية ، سقناها لنقول ان طريق الديمقراطيــة فى افريقيا غير معبد ، شائك . القلق الذى يسوق اليهــا جنود المستعمرين كرها صخرة ، والاقتصــــاد الذى لا يطعم الاهلين صخرة ، ولــكل من هاتين الظاهرتين آثار تملأ الطريق ظلمة يتسلل خلالها نور مزيف ، هو ضوء الحرب الباردة بين الشرق والغرب للسيطرة على روح افريقيا ووجدانها العميق ومصادرها المــادية فى النهاية توجهها توجيها يتفق وحاجيــــاتها هى وبعض حاجيات القارة عرضا غير عمد . ان افريقيـــا تجتــاز مرحلة من حياتها الاولى يصعب فيها التفكير الديمقراطى والتخطيط لمستقبل قريب يصـــون الحرية وسيــادة القانون وتمثيل الشعب . هذه اعوام الحكم المركز القوى فى كثير من الاقطار الافريقية لا نفع من تغطية الشـــمس بغربال . اننـــا لا نعتقد ان « رياح التغير » استحالت « جراح تغير » كما يقول المسرفون على انفسهم وعلى الناس ، حين يستعرضون المنظر السياسى القلق المتأرجح والتخلف الاقتصادى ، يشيرون الى مواقفهم الاولى من حركات النزوع للاستقلال ، وكانت مواقف ينقصــها الخيال ، هوت على رؤوس أهلها ، لانها هزلت امام قوة الزحف نحو الحرية . نحن اقرب الى الايمان بما قال به توم مبويا السياسى الكينى . قال وهو يختــم كتابه عن « الحرية وما بعدها » قبـــل عام تماما الآن وكأن كان يكشف عن مستقبل يراه فى وضوح ، خلف السجون يرى حوادث اليوم قبل عام « كانت افريقيا فى اعوامنا الخمس الماضية ، تقطع فى الغاب والحرش دربا

جديدا تسير عليه ، ويعرف كل الذين عانوا لجــربة الفأس والمسحاة في غاياتنا العتية وأحراشــنا الملتفة انها لا تترك الواحد دون خدوش هنا وهناك على الجسم ، وان الجروح في الساق لا مناص منها ، وهي تسير به الى امام . يلقى الـكتاب الذين يعبــرون بلادنا عبــورا والصحفيون السذج في روع الغربيين ، ان افريقيا قارة العنف والدم . ولا يسعنا الا ان نسخر من هذا ونسير سيرنا الوعر فطريقنا سلمية اخترناها على دربنا هــذا الذي نقتطعه اقتطاعا تدمى يدنا مرة وتدمى الساق »

هل تبرر الحقائق الاقتصادية والسياسية والنفسية فى القارة كل هذا الاعتداد بالنفس والثقة بها والتطلع ؟ ربما لا ، الحق الامين هو أن القواعد الاجتمــاعية التي قامت على عهد الاستعمار تتداعى هنا وهناك فى القارة السوداء ، وقد اثار الاستقلال فى نفوس النــاس آمالا عراضــــا ، أكثرها ما تحقق للان ، على النقيض جر الاستقلال فى اذياله كثيرا من خيبة الامل والمصاعب فى بعض البلاد . كينيا نفســـها مثلا ، وهى تنتقل من اقتصاد عالة على البيض الى اقتصاد وطني مستقل ، قال مواندوا منذ ايام : « ان آلاف الايدى العاطلة فى هذا البلد اصبحت خطرا كبيرا على استتباب الامن » .

بيد ان الباحث لا يسعه الا ان يلمح لقاء هــذا كله من معوقات الديمقراطية ، ان هناك عناصر ثلاثة فى الموقف ستحدث اثرها القوى فى عهد البناء . على رأسها هذا العزم الذى تراه فى عبارة الزعيم الشاب وفى كثير مما يقول غيره من القادة ، وثانيها ان الصفوة التى تجلس على قمة الشئون فى القارة صفوة مستنيرة ما ســاقتها الظروف للقيادة ، أتتها عن علم ودرس عميقين بدءا فى

الجامعات الفرنسية والبريطانية ، واحساس بالواجب قوى والمسئولية ، صفوة تنتمى للعالم كله ، من ناحية تعرف كيف تنتفع منه ، وللقارة من ناحية أخرى ، تحب ان تخدمه ، وثالث العناصر الثلاثة هو الود الذى تلقاه القومية الافريقية والشئون الافريقية عند صحافة العالم ، رغم ما يقول توم بويا ، ورجال السياسة أكثرهم والصناعة والمال . قس هذا العطف ان شئت ، بالنقد الذى لا تفتأ ان تلقاه مشاريع العرب ، وفى مقدمتها حنينهم الذى لا تخمد ناره للقاء عبر الحدود ، لا كيدا لأحد بل تحقيقا سياسيا لحقيقة ثقافية بادىء الامر ، واقتصادية واجتماعية من بعد . قس — ان شئت — فى كلمة واحدة الفرق بين العطف الذى تلقاه فكرة القومية الافريقية والريب التى تثيرها فكرة القومية العربية الا عند طائفة من المؤرخين والكتاب اخذت الثقافة العربية الاسلامية من مصادرها الاصل تحبها وتحنو عليها ..

ان عناصر الخلاص من هذه المتاعب التى تعيشها الاقاليم فى افريقيا اذن موجودة : العزيمة الافريقية كما قلنا ، والصفوة المسئولة ، والعطف العالمى ، ولعلك تقدر معنا ما نقول عن الادارة الافريقية حين ترى رجلا كسنفور يعلن فى حديث من أحاديثه عن ايمانه بالديمقراطية على هذا النحو « سأعتزل السياسة ان ظننت فى يوم من الايام ان افريقيا غير قادرة على انتاج ديمقراطية » اما أن الصفوة القائدة المستنيرة فسترى حين يتقدم بنا هذا الحديث ، كيف كانت هذه الصفوة تعى مصاعب الاستقلال والحكم حتى قبل أن يكون الاستقلال أو يؤول اليها الحكم ، والصحافة العالمية ، عنصرنا الثالث ليس أدل على ودها الذى ذكرت من ان

السيدة صاحبة هذا الكتاب ، كتبت منذ أسابيع ترجوها الا تغالى وتسرف فى عطفها وتضر من حيث تريد ان تنفع ، وقل مثل هذا عن الراسمال العالمى الذى هرع يبنى لنكروما مشروعه العظيم على الفولتا والجدال حول شخصه قائم قاعد لا يهدأ . انها افريقيا التى تسحر ، موضع العطف وحسن القصد من كل قبيل..

ولننتقل من عناصر الخلاص هذه الى ظاهرة فى كتابات القادة الافريقيين وآثار المفكرين ، تحملنا على كثير من التفاؤل بالمستقبل رغم هذه الاعوام العجاف فى نواحى حياتها المدة . كانت ظاهرة فى الافق البعيد ترى منذ زمن ، واتت تستقر منذ عام ١٩٦٠ مع تجارب الاستقلال . كان هؤلاء القادة والمفكرون لا يعرفون غير الديمقراطية الكلاسيكية ، ولايحترمون غيرها ، وفجأة وجدوا انفسهم يبتدعون منظمات ومنشآت لا تتصل من قريب بالديمقراطية التى خبروا فى اوربا الغربية ودرسوا فى جامعاتنا العتيقة ، منظمات ومنشآت اقتضتها الضرورات المحلية تحمل عين الاسماء مثل نقابات عمال وجمعيات تعاونية الى آخره ، ولكنها تختلف فى اهدافها وادارتها عن تلك التى يتحدثون عنها فى استحياء لانها لا تطابق ذلك المثال كل المطابقة ، الى ان وثقوا اخيرا من فعاليتها فى بلادهم تمام الوثوق مع الزمن وراوا المثال الذى كانوا يحبون ليحتذوا يهتز ، كما وصفت فى مطلع هذا الحديث ، فشرعوا يقولون انها منشآت افريقية صرفة نمتها حاجيات افريقية وعقول من القارة ، وذهب فلاسفة الحكم أبعد من هذا فقالوا : ان تجارب افريقيا اضافة محترمة لنظريات المجتمع الديمقراطى ، وهى تقوم على تمييز واضح فى اذهانهم

بين الديمقراطية فى جوهرها والمنشآت البرلمانية ، هذه تختلف من بيئة الى اخرى ، وتلك جوهر لا يتأثر بطرائق التعبير عنه . الديمقراطيـــة التى عرفها الاغريق كانت تعنى الحكم عن طريق النقـــاش ، ولـكنها لم تعن أن يجتمع الناس كلهم ليتحاوروا ، وكان الدين يشتركون فى الحـوار اكفـاء متسـاوين ، وهـــذان هما العنصران الجوهريان فى الديمقراطية .. النقاش والمســـاواة ، ولا ديمقراطية بغيرهما ، فيما نقدر ، وكلاهما يحتويان على عنصر ثالث هو الحرية كما يعبر نيريرى فى بحث له عن « الافريقى والديمقراطية » نشره عام ١٩٦٠ قبـل أن يلى تصريف الامور فى تنجانيقا ، وقد طبق هذه النظرة الجديدة للديمقراطية بعد ان ولى الوزارة اولا والرئاسة فى النهاية . كان يعد نفسه عن وعى اذن ، ولنا ان نقول حين نقرأ هذا ونرى كيف يطبق ، ان للديمقراطيـــة فى افريقيا وجها آخر غير الوجه القـــديم ، وانها لم تأت اعتباطا كما يحسب البعض.كان سيكوتورى وهو رجل عرف بعبقرية فى التعبير والتنفيذ ما أوتيهآ الا القليلون ممن صنعوا انفسهم بأيديهم مثله ، يقول بعد عام واحد من اختياره الجرىء ، الخروج على المجموعة الفرنسية ، فى وسط متاعب اقتصادية لا حد لها ، أتت اثر غضبة ديجولية قاسية « هناك طريقان للحكم فى اى بلد من البلدان ، أولاهما أن تقوم الدولة بكل ابتكار وابتداع ، وأن تكون هى الضمير والوجدان تقوم مقـام الانسان ، تنكر عليه مواهبـــه وانسانيته ، يعيش فى اطـــارها بشروطها ، لانها القوية القـــاهرة ، تملك كل شىء ولا يملك الواحد من أمره أى شىء ، تعمل فى آن واحـــد على حل المشاكل الـكبيرة فى الدولة وتتصـــدى للتفاصيل

الصغيرة . هذه دولة ضـــد الديمقراطية ، ظالمة ، لم نخترها مثـالا لنا ولن نفعل . اخترنا الطريق ، طريق الديمقراطية » ..

لو شئت ان اسـوق الامثـلة على ايمان القـادة بالديمقراطية لأطلت ولـكنى احب أن ننتقل الى تعريف نوع الديمقراطية التى هـداهم اليها النظر الطويل فى الذى يستطيعه الناس فى القـارة والذى لا يستطيعون فعوائق الديمقراطية توجـد فى الشعوب نفسها ، كما توجد فى الظروف والقادة . تواضعوا جميعا على اختيار الديمقراطية المركزية التى تتمثل فى حزب او هيئة تتولى هى تنظيم العمل السياسى فى البلاد ، فالمعارضة المنظمة على النسق البريطانى والامريكى ، معارضـة الحكومة البديل ، لا موجب لها الآن فى افريقيا ولا سبيل اليها فى كل قطر . ما تضاربت المصالح الاقتصادية التى تقوم عليها التشكيلات الحزبية ، والمشتغلون بالاعمال العـامة ما زالوا قلة من الناس لا ينفع الاهداف العـامة أن ينقسموا كتلا متحاربة . ولا يعنى هذا الا تكون معارضة قط ، فمن غير الطبيعى الا يختلف الناس ولعل الزعيم نكروما هو رائد هذا التنظيم السياسى فى القارة السوداء ، كان يتحدث عنه فى أخريات الاربعين وعنه أخذ الاخرون .

قال فى ١٢ يونية عام ١٩٤٩ وكثيرون من قادة افريقيا ، ما احترفوا السياسة بعد ، فى يوم الذكرى العاشرة لقيام حزب الميثاق الشعبى ، يكاد يخطط للمذهب الذى صار طريقا مطروقة بعده « نحن فى حزبنا أكفـاء ، لا تفصلنا قبائلنا ولا أجناسنا ، وكلنا أحرار فى التعبير عن آرائنا ، نحاور بعضنا البعض،حتى نصل الى قرارات ترتضيها الاغلبية ، ويسكت بعدها الحوار ، يقف بجانب

القرار من صـــوت له ومن لم يصوت ينفذ ما جاء فيه باخلاص . هذا هو اصدق اشكال الديمقراطية المركزية: قرارات تجيء نتيجة الحوار الحر تعبر عن رغبة كل فرد وحريته وتنفذ باخلاص ، أمر ينطبق على كل مستوى من مستويات الديمقراطية ، وعلى كل صعيد ، على أعلى صعيد (البرلمان) وعلى اصـــغر مراتب الديمقراطية (القرية) لا فضل لأحد من الناس على غيره الا بالاخلاص لهذا الطريق ولا يعفى احدا من الناس مقام عن الاجراء التأديبي » وأرجو الا يجيء في بالك ان نبي الديمقراطية المركزية في أفريقيا قال هذا ، وهو طيب جميل ولكنــه عمل بغيره . وضع ابيا صهر السير ستافورد كريس في السجن ، وصعبت الحياة على الاستاذ الـكبير بوسيا فترك بلاده التي قادها فكريا في فترة من فترات حياته ، شخصان لا تني الصحافة الغربيـــة تتحدث عنهما كلما عطس هذا الرجل الـكبير والحق الذى لا ينكره كل من عرف المنظر السياسي في غانا ان قلة من كبار رجـــال الفكر والسياسة عزلت نفسها عن التنظيم الشعبى ، وقد شمل الـكافة في غانا ، كما لم يفعل في أى مكان آخر في القارة وشرعت تنادي بديمقراطية وستمنستر مستندة في هذا النداء على أخبث ما يمكن أن يستنـد عليه رجل دولة . القبلية وعصبة المـكان . بدأت غانا قبل كل لداتها في هذا الحقل ، وفي حياتها السياسية عبرة للمثقفين الذين يجمـــدون ازاء وقائع الحيـــاة والسياسة في البلاد التي يريدون ليخدموا بالذى ثقفوه في جامعات الغرب والشرق . تجد نفسها قلة في صحراء ما كان ينبغى لها ، وفي عزلة لا تخفف من وحشتها الا ما تقوله عنهم الصـــحافة الاجنبيـــة من حين لحين ،

تسوقهم شواهد لاستقراءاتها العاجلة ، قصيرة النظر من الذى يقع فى البلاد النامية من أحداث ..

والحزب الواحد بعد هذا كله ، هو الطريق الوحيد لبناء ديمقراطية شاملة فى هذه البلاد حديثة العهد بالاستقلال ، فهو سبيلها الوحيد ، فيما يرى الواحد لخلق قومية تقوم مقام القبلية ودولة ولاء المواطنين كلهم لها مهما تغيرت الحكومات . هذه تتغير من حين لحين ، وتلك تبقى تحرسها عيون الجميع على اختلاف نظراتهم الاجتماعية . للحزب الواحد سيئات نعم ، ولكن الواحد فينا يجب أن يظن انها موقوتة ، كما يقول الاستاذ محمد عودة ، فى الندوة الهامة التى عقدتها مجلة « الكاتب » المصرية فى الشهرين الماضيين ، وهو يتحدث عن القيود « التى توضع على الحرية والمصاعب التى تواجه مشكلة الحرية ، بل الاخطاء التى ترتكب احيانا ازاء قضية الحرية ، فى فترة خلق الدولة القوية الثابتة توطئة للديمقراطية الشاملة » . انها « ثمن رخيص ازاء نقل الانسانية » من حال شتيتة فى افريقيا الى اخت لها ليمة ، ويضع نفس المعنى الدكتور لويس عوض فى كلمات أخرى تدلل أيضا على ان هذه الطريق الوعرة ، طريق التنظيم السياسى هى نقطة البدء فى السير نحو وضع الاسس لقيام الديمقراطية اللبرالية ، بأحدث ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، يشمل تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية ، أن حدث عدوان على الشخصية الانسانية « فهو عدوان مؤقت » ثبت بالتجربة والتاريخ انها مرحلة مؤقتة ، وبعدذلك تحاول المجتمعات البشرية أن ترجع مرة أخرى لفكرة احترام الذات . « منطق يستمد قوته لا من النظرة العالمية وحدها ولكن

من تتبع ما نرى بأعيننا أمامنا . لو لم يكن ستالين ، لم يكن خروشوف ، ومن يدري من سيكون بعده،وقد سار هو طريقا تبشر بالكثير للانسان الروسى ، وبعيد أن يرجع زعيم يستحق اسمه لما كان بلغ فيه ستالين فقد وضحت طرائق أوفق بعده لانجازما أنجز، دون قسوته والوهيته المصطنعة ، شيىء يقودنا الى القول بأن الواقعية السياسية تتطلب فى أكثر أقطار القارة الافريقية ، أن يرعي المتعلمون والمثقفون هذه التنظيمات الشعبية رعاية ذكية لتقصر المرحلة التى تجمد فيها الحريات الاقتصادية والسياسية ، ذلك لأن الحزب الواحد أو التنظيم العام للقوى الاجتماعية والاقتصادية يقتضى فى كل حالاته رجلا واحدا مصابرا تلتف حوله الجماهير ، سيكوتورى فى قينى ، نيريرى فى تنجانيقا ، نكروما فى غانا ، رجال ارتبطوا بمصير بلادهم ، نذروا أنفسهم لها نذراً ، وبادلهم الناس حبا بحب ، حتى حين يجانبهم التوفيق لا يلومونهم قدر ما يلومون بطانتهم . بعيد على هؤلاء اذن أن يروا صوابا فى جانب أحد ، وأن تواضعوا ، وعسير عليهم وهذا مكانهم الاسمى ان يطيقوا معارضة يشتمون فيها ان أهلها لا يقصدون بها الا السلطة والجاه ، ودلت التجربة على انهم يقهرون معارضيهم قهراً لأنهم يحسبونهم — صادقين — انهم يعوقون بناء الدولة . خير لكل الاطراف ، والحال كما وصفنا ، أن تجد كل الآراء والاتجاهات مكانها داخل التنظيم الشعبى أو الحزب الواحد تعبر عن نفسها بقدر الحرية المتاحة ، كي لا تضيع جهود القادة فى كبتهم وجهود هؤلاء فى المقاومة ، ويتأخر يوم الديمقراطية الهينة التى لا تخاف من أن تتفتت الدولة فى عملية الصراع من أجل الحكومة ..

واخيرا . . .

لن تعرف القارة السوداء ديمقراطيـــة مما تعرف اوربا الغربية والولايات المتحدة لاختلاف ما تعالج هـذه الاقطار من مسائل ، واهتزاز منشآتها وقيمها اهتزازا يصعب الاخذ عنه فهي غير صلدة ، مائعة ، من ناحية ، ولن تاخذ القارة ما تمارســـه الدول الشرقيـــة من ديمقراطية شـعبية لانهـــا تؤمن بجوهر الديمقراطية بالحرية والمساواة والعدل بكل ما في هذه الكلمات من معنى عميق طيب ، من ناحيـــة اخرى . ستسير فيما نرى الآن سيرتها مع الديمقراطية المركزية تضيف لمعنى المفاهيم القديمة اضافات من خبرتها ، ترفدها ان شئت واصدق الدلائل على هـــذا تجارب التنظيم السياسى الذى سينتهى قريبا بمجلس الامة فى الجمهورية العربية المتحدة ، تجارب سارت اثنى عشر عاما ، تصيب هنـــا وتخطيء هناك ، تصبو فى النهاية الى تنظيم علاقة الفرد بالدولة تلك « العـــلاقة التى تسمح له بأن يكون له كيانه » فيما يقول الدكتور حسين خلاف مدير مؤسسة البنوك ، أبصر من تحدث فى ندوة مجلة « الكاتب » ، وأعمق من نظر لأمام من حيث هو الآن ، « فالوضع الجديد يحقق للانسان العربى فى مصر قطعا الكثير من المراحل ، ولـكن لدى الفرد مرحـــلة اخيرة وهى أن يحقق ذاتيته والا يذوب فى المجتمع بالرغم من الرفاهية الاقتصادية التى قد يتمتع بها ، أو بالرغم من انه لم يعد مستغلا لصالح طبقات معينة . الفرد مشتاق الى أن يحقق كيانه ويحقق ذاتيته ويحقق ملكاته وقوة ابداعه » . ايمان بالانســـان يعيـــد للذهن أســـاطين الديمقراطية الكلاسيكية مما سيحمل القارة السوداء

على المضى فى تجربتها للبناء السياسى والاقتصادى والاجتماعى بأداة ما خذلتها الا قليلا حتى الآن ، أداة الحزب الواحد ، ناظرة أكبر الظن بعين أخرى الى هذه المرحلة الجديدة من تقدم العمل السياسى فى الجمهورية العربية المتحدة ، لا لتأخذ عنها الشكل والمضمون فهذا غير مستطاع وغير حميد ، بل لتستمد الثقة منها بديمقراطيتها المركزية معبرة فى حزبها الواحد ، حتى تصل الغاية المرجوة آخر المطاف . وكل الدلائل تشير الى ان افريقيا ستطور نظاما فريدا فى الحكم ، عبرت عنه فى عبارة شاعرية أخاذة دووس لسنق فى «مذكراتها الذهبية» تقول : « وقفت فى غيمة فى الفضاء ، زرقاء ارقب امنا الارض تحتى تدور ، تحفها غلالات حمر ، تعمق الوانها حينا ، وتخف حينا آخر ، من اقليم لاقليم فى الشطر الشيوعى ، وغلالات اخرى بقع من الوان مختلفة تحيط بالشطر غير الشيوعى . ثم دارت الارض تحتى أرقبها من غيمتى الزرقاء ، فاذا أنا وجها لوجه أمام افريقيا . انها غير هذين . سوداء تضىء سوادا يثير الحس والخاطر . تمثل لى ليلا قمره فى السبيل الى وسط السماء فى مساره ، ولما يصعد الافق كله ليطل على أرضنا ينير » ..

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

نجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

هذا الكتاب

مؤلف هذا الكتاب اديب معروف من ادباء ((السودان)) الشقيق ، له بحوث قيمة ودراسات عديدة في الادب والفكر والفن الافريقي .. فقد اتيح له أن يتابع الحركة الفكرية المعاصرة في كثير من الدول الافريقية وان يطالع انتاج ابنائها ، وان يناقش آراءهم واتجاهاتهم على صفحات المجلات الادبية وفي محاضرات وندوات عقدتها الهيئات الادبية في بلادنا العربية . انه في هذا الكتاب ـ الذي يتناول موضوعا جديدا على المكتبة العربية ـ يسلط الاضواء على مدى ازدهار الفكر الافريقي في السنوات الاخيرة ، ويعرض مواهب وملكات تبشر بمستقبل رائع وادب عالمي يستمتع بقراءته ابناء الغرب مثلما يستمتع به شباب الشرق لانه ادب انساني رائع لا زيف فيه ولا تصنع . زادته الازمات التي تمر بها افريقيا روعة وجمالا وعمقا ..

يقول المؤلف في تقديم هذا الكتاب ((هل هذه الفصول دراسات اجتماعية ام تاريخية ام ادبية ؟ .. انها كلها معا .. ففروع المعرفة لم تعد حجرات مقفلة بعضها ازاء بعض ..)) ثم يردف قائلا : ((لقد سعيت في فصول هذه ان أكون جنبا كل حقيقة اعرف ، ازعاجا بحثي ، وآمل الا تخفق التجربة ..))

١٠ قروش